في السيرة والتاريخ ١

بين يدي الرسول الأعظم (ص)

القسم الثالث

محمد بحر العلوم

دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع

بين يدي الرسول الأعظم (ص)

القسم الثالث

في السيرة والتاريخ

١

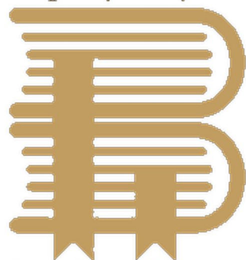


بين يدي الرسول الأعظم (ص)

القسم الثالث

محمد بحر العلوم

دار الزهراء (ع)
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان



الطبعة الاولى
١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

"لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم
يتلوا عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة،
وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين"

"صدق الله العلي العظيم"

المقدمة

لم يكن هذا الكتاب ـ بين يدي الرسول الاعظم ـ بالجديد على القراء الكرام ، فقد سبقه جزءان تضمنا القسم الاوفر من سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، مع عرض لمواقف بطولية من الرعيل الاول ممن حملوا لواء العقيدة في مسيرة الدعوة الاسلامية .

وجاء هذا الجزء ـ وهو الأخير من هذا الكتاب ـ يضم الجزء الباقي من السيرة النبوية العطرة ، واهم الاحداث التي رافقتها واثرها في موكب الدعوة اثناء وبعد ايام صاحب الرسالة .

وكما هي عادتي في عرض السيرة والتاريخ ، اسجل الأحداث الهامة التي ترتبط بالعقيدة ، ليكون كل فرد على معرفة تامة بها ، ووعي كامل بمضامينها ، وخاصة تلك الجوانب التي افرزت ـ نتيجة التضليل التاريخي ـ تخلفنا في استيعاب الحقائق الهامة ، وتغيير مسار الواقع في تدوين التاريخ الاسلامي لصالح التعصب

الاعمى ، والتطرف الارعن على حساب الفكر والايمان .

وكلي امل ان اكون قد اديت بعض رسالتي واوقفت القارىء على ما يجب ان يعرفه باسلوب بعيد عن التشويه ، والتعقيد والمبالغة والدوران .

كما ارجو ان يوفق الله « دار الزهراء » لاداء رسالتها الاسلامية ومنه وحده اطلب ان يسدد خطاي فيما اقول واكتب ، في خدمة الحق ، وشرف الكلمة ، وهو ولي التوفيق .

محمد السيد علي بحر العلوم

١٣٩٩/٣/٥

١٩٧٩/٢/٢

أبو ذر الغفاري

وتزاحم المجلس بالوافدين ، كل يريد ان يفرض للشيخ ابو معاذ ، ليسمع منه الحديث جيداً ، فقد طافت به الشيخوخة ، واتعبته الأيام ، فأخذت منه مأخذا .

وبعد استراحة قصيرة تحدث الشيخ ابو معاذ - والكل منصتون له وقال : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول :

« ما أظلت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر » وسكت المتحدث . . وتطاولت الأعناق ، وحملقت العيون ، وأرهفت الآذان لحديث الشيخ ، فان لأبي ذر مكانة في نفوس السامعين ، واستطرد في الحديث .

وماج في أرجاء مكة ذكر الدعوة ، وتلاقفته الأندية والمجالس بكثير من الأهتمام . . ولكل حديث جديد ، وبناء هام جو خاص تعيشه الأندية ، وتهتم به الناس . . الدعوة التي جاءت ثورة

عازمة على الأصنام وعلى العادات البالية ، وعلى هدم التحكم في الناس

ويصيح أحدهم : ما لنا ولمحمد إنه يريد أن نترك عبادة أصنامنا وأنا خسرت على صنمي الشيء الكثير . .

هكذا كانت العادة في الجاهلية كل يتخذ لنفسه الهاً حسبما يريد ، وصنما كيفما يختار

وقال الناس عن صنم أبي ذر مثلما قالوا عن بقية الأصنام قالوا أن اسمه « نهم » فأتاه يوماً وصب له لبناً ، وذهب عنه ، ثم جاءت منه التفاتة فإذا كلب يشرب ذلك اللبن ، ولما فرغ منه رفع رجله وبال عليه ، فأنشأ أبو ذر قائلا :

ألا يا نهم اني قد بدا لي
مدى شرف يبعد منك قربا
رأيت الكلب سامك حظ خسف
فلم يمنع مقاسك منك كلبا .

فسمعت أم ذر فجاءت لصنمها فقالت : لقد اتيت جرما ، فاخبرها بما شاهده ، فقالت

الا فابغني لنا رباً كريماً
جواداً بالفضائل يا ابن وهب

فما من سامه كلب حقير
فلم تمنع أذاه لنا برب
فما عبد الحجارة غير غاو
ركيك العقل ليس بذي لب

وحتى لو صحت هذه الرواية فابو ذر يختلف عن بقية الناس في ايمانه ، واعتقاده . . وكان قد بلغه حديث الناس عن دعوة النبي الجديد في مكة . . وخفق قلبه لهذا النبأ ، واندمج في شعوره احساس خفي . وارسل خلف اخيه ، وطلب منه ان يتقصى اخبار هذه الدعوة الجديدة في مكة ، وان لا يعلم به احد .

ومرت ايام رغم قصرها كانت طويلة على ابي ذر فهو ينتظر عودة اخيه بكل لهفة ، وعاد بعد برهة ، واخبره بحديث مكة ، ودعوة النبي الجديد ، وسخط قريش عليه ، ولكنه لم يتمكن من ملاقاته .

وكان ابو ذر وهو يسمع الحديث ، قد خالجه احساس غامض لهذا الخبر ثم صمم على شيء . لقد قال لاخيه انه سيشد الرحال الى مكة ليقف بنفسه على جلية الامر ، واخبر زوجته بذلك ايضا ، وشد الرحال .

ان ابا ذر يبحث عن شيء يملاء به نفسه انه شيء عميق يشعر بحاجته اليه لن تطفيء لهبه هذه الأصنام . إنه الإيمان الخالص

الذي يرف بين اضلاعه ليجسده قوة وصلابة في آفاق العقيدة والمبدأ .

لقد قالوا له أن محمداً يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويحث على مكارم الأخلاق ، واسعاد الضعيف ، ومقارعة الباطل . . امور تهز أبي ذر ، ولها في نفسه كل الاهتمام . وبالاضافة الى هذا كله فان محمداً هو لعلى خلق عظيم . .

ويصل الى مكة ، وسار فيها هنا وهناك ، وهو لا يدري كيف يصل للنبي ، انما يسمع احاديثاً ينقلها الناس ، وفيها يبدو مدى الحقد عليها ، انهم يعانون منها معاناة صعبة . . ومن الخير ان لا يبدأ احدا بالسؤال عن محمد .

وينتشر الظلام ، وأين يذهب ابو ذر ، وقرر ان يأخذ من المسجد له مضجعاً يقضي به ليلته ، وليتنقل بين الحلقات التي تعقد في فناء البيت عندما يحل المساء لعله يستمع من السامرين ما يعّرفه على طلبته .

وانقضى من الليل جزءه الأول ، ولم تغمض له عين ، فهو يرهف السمع الى بعض المتحدثين ، ويتصيد من اخبار الدعوة ما يوصله لمرامه . . وحديث محمد لم ينقطع عن السامرين .

ومر عليه رجل ، فالتفت اليه ، وعرف من ملامحه انه غريب ـ كان الرجل عليّ بن أبي طالب ، وهو معروف بكرمه وحمايته

للغريب ، فيلتفت اليه ويسأله : ممن الرجل ؟ ، ويرد عليه ابو ذر : من بني غفار ، فقال له : قم إلى منزلك . وأخذه إلى داره ، ولم يرغب عليّ أن يثقل ضيفه بالاستفسار عن مهمته ، فتركه وشأنه ، كما أن أبا ذر لم يحاول أن يسأل علياً بشيء ، وانقضت الليلة ، وأصبح الصباح ، وغدا ابو ذر يبحث عن طلبته فلم يعثر عليها ، فلم يلتق طيلة يومه باحد يعرفه امر الدعوة الجديدة ، وكره أن يسأل أحداً عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

واقبلت الليلة الثانية ، وانتشر الظلام ، وعاد ابو ذر الى المسجد كما فعل في ليلته الماضية ، واخذ منه ملجأ يقضي به ليلته . ولم يمض من الليل الا شطره حتى مرّ عليه عليّ بن أبي طالب ، وقال له : أما آن للرجل أن يعرف منزله ؟ ، فانطلق به إلى بيته ، فبات عنده حتى اصبح ، وقام ابو ذر وخرج كسابق يومه .

وفي الليلة الثالثة كعادته جاءه عليّ (ع) واخذه إلى بيته ، ودب في اعماقه اطمئنان بهذا الرجل ، بعد ان لمس فيه شهامةً وكرماً ، فأخذ ابو ذر عليه العهد ان سأله عن شيء لا يفشي له سراً ، وليكتم من امره ما استطاع . ولو لم يأخذ من علي عهدا فابن أبي طالب من سلالة ما عرفت الكذب ، ولا الايقاع بالضيف ، ورغم هذا فقد اكد له بالمواثيق بانه لم ينطق بشيء .

قال ابو ذر : بلغني ان رجلا خرج يدّعي النبوة ، فارسلت

ليأتيني بخبره وبما سمع منه ، فلم يأت بما يشفي صدري من حديثه ، فجئت بنفسي لألقاه فقال له علي : إني غاد اليه فاتبع أثري ، فان رأيت ما أخاف عليك اعتللت بشيء ، وصرفت عنك النظر ، وان لم أر احدا فاتبع أثري حتى تدخل حيث ادخل .

وفعلا اخذ أبو در يقتفي اثر ابن أبي طالب حتى أدخله على النبي (ص) واخبره الخبر ، وسمع قول رسول الله ، فاسلم من ساعته . . ثم قال : يا نبي الله ما تأمرني ؟ ، قال : ترجع إلى قومك حتى يبلغك أمري .

قال ابو ذر : والذي نفسي بيده لا أذهب حتى انادي بالاسلام في المسجد !! ثم دخل المسجد ونادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . .

وأهتز المشركون لهذه الجرأة من رجل غريب . . وقام ابو سفيان وقد علا وجهه الغضب والحقد ، وحملق في أبي ذر يتفحصه ، وقد أرعبه النداء ، وهز أعضائه قوة الرجل ، وصرخ بوجه أبي جهل : يا أبا عكرمة قم للرجل ، فقد صبا لدين يتيم عبد الله وهجم عليه أبو جهل وجلاوزته باسياطهم ، وارهقوا جسده بالضرب . وهرع اليه العباس بن عبد المطلب ، والقى بنفسه عليه ، وصاح بالقوم : قتلتم الرجل يا معشر قريش ، أنتم تجار وطريقكم على غفار ، وسوف يأخذون بحقهم منكم ،

ويقطعون عليكم الطريق ، فأنكشف ابو جهل ، وتراجعت جلاوزته ؛ وتخلص ابو ذر من ايديهم ، وذهب الى ناحية من المسجد ، وقد ضاق ذرعا بجهل القوم الذين لم يدخل الايمان في قلوبهم . وقضى ليلته في ذكر الله ، واصبح الصباح ، وعاد القوم الى مجلسهم ، فتجمعوا عليه في المسجد ، فما كان منه الا ان خطب فيهم وطلب منهم ان يلبوا داعي الله ، ويسلموا برسالته ، فمحمد الصادق الامين ،واطل عليه ابو لهب ، وهاله ما رأى . . ان هذا الغريب بدأ يتصدى لهم بما يثير عليهم الملأ وما هو ودعوة محمد ، وقد بلغ به الامر ان يتحداهم لليوم الثاني . . فنطت اوداجه وهو يمر بهذه الافكار ، وزاغت عيناه من الغيظ ماذا يسمع ؟ يقول هذا الغريب : يا معشر قريش اصغوا الى محمد بن عبد الله انه يدعوا الى الحق ، الى الخير ، فلا تموتوا في جهلكم وغيكم . .

وصاح بأعلى صوته . . . لا . . لا . . لا أطيق هذا الحديث ، كموا فم هذا الغريب يا غلمان دونكم الرجل ، ولعبت السياط على أبي ذر حتى أغمي عليه ، ويخلصه العباس ايضا .

ويعرف الرسول الاعظم خبر أبي ذر ، ويطلب منه ان يخرج إلى قومه ، حتى يصله خبره كي لا تفتك به قريش . فقد بلغ من عتوها وغيها على اصحابه الضعفاء ان الهبت اجسامهم بالسياط ،

ومكاوي النار ، وسامتهم انواع التعذيب ، كما أمر باقي اصحابه بالهجرة ليأمنوا قسوة الطغاة ، وبطش الظالمين .

وابو ذر لم يكن بالهياب ، أو الخائف ، فقد وصفته المصادر : بأنه كان رجلاً شجاعاً يتفرد بالحروب وحده ، ولا يجبن في ساعة الروع ، ولهذا واجه قريشاً بكل قوة وجرأة ، فهو عندما يمتثل أمر الرسول بترك مكة ، والعودة الى قومه يقول له : يا رسول الله اني منصرف إلى أهلي ، وناظر متى تؤمر بالقتال ، فالتحق بك . فاني أرى قومك عليك جميعا . . فقال له رسول الله : أصبت فأنصرف . . .

ومضى ابو ذر الى قومه ، وفكره لم ينقطع عن رسول الله (ص) ودعوته البناءة وصار يقف في طريق القوافل المتوجهة إلى قريش ، فيقطع عليها طريقها ويقول لهم : لا أرد اليكم من العير شيئا حتى تشهدوا الا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . . فان فعلوا رد عليهم ما أخذه منهم ، وان أبوا لم يرد عليهم شيئا . فكان على ذلك حتى هاجر رسول الله (ص) الى المدينة ، ومضى الى بدر وأحد ، ثم بعد ذلك قدم على رسول الله (ص) ، واقام معه .

ان ابا ذر ـ كما تحدد الروايات ـ اما رابع او خامس من أسلم ، وعندما إلتحق بالرسول الأعظم ، لازمه ملازمة الظل ، حتى

عُرِف بخادمه ، واحد حواريه ، وبقي هكذا معه حتى لبى نداء ربه ، وانتقل الى الرفيق الاعلى .

واشتدت الفتنة بين المسلمين ، والرسول بعد لم يدفن ، واجتمع الكثير من الصحابة في « سقيفة بني ساعدة » لانتخاب من يخلف النبي بعد موته . وطبعا النص السابق من صاحب الرسالة على من يخلفه لم يقف أمام الهزة الجماهيرية التي اثارتها السقيفة .

بالامس ، ولا زال صدى النبي (ص) يرّن في الآذان ، قالها صريحاً في « حجة الوداع » وعند « غدير خم » .

« من كنت مولاه ، فهذا علي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، وأخذل من خذله » .

وبايعه المسلمون امام رسول الله ، لكن الزخم العاطفي أثار العاصفة ، وجرف سواد الناس ، وسيطرت اراء السقيفة على اذهان البعض ، وانعقدت البيعة بالخلافة ، وأزيل عنها ظل ابن ابي طالب كي لا تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد . .

وكان ابو ذر وعدد من الصحابة في ثورة من هذه الأحداث ، انهم على بينة من الامر فقد سمعوا من النبي كما سمع الناس ، وعرفوا عنه كما عرف الكثيرون . ولكن سيطر على هذا الصحابي وجوم عجيب . .

وقال له عمار بن ياسر : يا أبا ذر . أنضع أيدينا على سيوفنا ونهجم . فماذا ننتظر . لكن أبا ذر الصلد قال له ، وحوله عدد من خيرة الصحابة ـ ان أبا الحسن لا يريد ان يثيرها عجاجة في وجه القوم ، لقد جاءه عدد من القوم ، وطلبوا منه ان يثور في وجه القوم ، لكنه فضل أن يحفظ وحدة المسلمين . ليس أدل على تصميم القوم ما جرى مع الرسول وهو بعد لم يلفظ أنفاسه .

ولكن العاصفة تزداد تأججا ، وقد جاء من جاء الى علي بن أبي طالب الى داره وفاطمة الزهراء فيه ومعهما الحسن والحسين . . واقتيد علي الى مسجد الرسول ان طوعا او كرها ، وابو ذر يهرول خلفه ، ثم ينكفيء الى عمار والمقداد وسلمان ، ومن كان على رأيهم ، وهو بين مصدق ومكذب ويصيح : فعلوها والله ، ويده على قائم سيفه . . لكن عليا (ع) لم يأمر أحدا من اصحابه وكلهم لهب نار كادوا حينذاك ان يلجأوا الى العنف في تلك الساعة لان العصبية الجاهلية كادت تمزق إيمان القوم . .

وتدور الايام ، وفي مجلس يجتمع فيه عمر بن الخطاب وابن عباس ويدور بينهما حوار ، لم يزد من معلومات أبي ذر شيئا ، لكنه كشف للغير ما كان مخبأ وكان ذلك في خلافة ابن الخطاب .

عمر : أتدري ـ يا بن عباس ـ ما منع قومكم منكم بعد محمد ؟

ابن عباس : ـ وهو يكره ان يجيبه ـ إن لم اكن ادري فامير المؤمنين يدريني .

عمر : كرهوا ان يجمعوا لكم النبوة والخلافة ، فتتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً ، فاختارت قريش لنفسها .

ابن عباس : فاصابت ووفقت يا امير المؤمنين ؟! . . ان تأذن لي في الكلام ، وتمط عني الغضب تكلمت .

عمر : تكلم

ابن عباس : أما قولك : « اختارت قريش لنفسها فاصابت ووفقت » فلو ان قريشا اختارت لنفسها حيث اختار الله عز وجل لها لكان الصواب بيدها غير مردود ومحسود .

واما قولك : « أنهم كرهوا ان تكون لنا النبوة والخلافة » فان الله عز وجل وصف قوماً بالكراهية ، فقال : « ذلك بانهم كرهوا ما أنزل الله ، فاحبط اعمالهم » .

عمر : هيهات ! . والله يا بن عباس قد كانت تبلغني عنك اشياء كنت أكره ان اخبرك فتزيل منزلتك مني .

ابن عباس : وما هي ؟ فان كانت حقا فما ينبغي ان تزيل منزلتي منك . . وان كانت باطلا ، فمثلي اماط الباطل عن نفسه .

عمر : بلغني انك تقول انما صرفوها حسداً وظلماً .

ابن عباس : اما قولك : ظلما . فقد تبين للجاهل

والحليم . . واما قولك حسدا . فان أبليس حسد آدم ، فنحن ولده المحسودون .

عمر : هيهات !! أبت ـ والله ـ قلوبكم يا بني هاشم الا حسدا ما يجول وضغنا وغشا ما يزول .

ابن عباس : مهلا لا تصف قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس ، وطهرهم تطهيرا بالحسد ، والغش ، فان قلب رسول الله من بني هاشم .

عمر : إليك عني . .

وتمت المحاورة ، وتفرق القوم ، وقام ابن عباس عن مجلس الخليفة وخلفه ابو ذر ، وهو يفكر ابعاد هذا الحوار ، وما ان انتهى عليه الحال ، ويكتم في نفسه لوعة .

وسكت الشيخ ابو معاذ ليسترد انفاسه ، لقد دارت برأسه الأفكار ولكنه قطعها ، واستمر في الحديث قائلا :

ورغم ان الزمن امتد ، فقد سارت أمور الخلافة من أبي بكر الى عمر ، ومنه الى عثمان ، وعلي بن أبي طالب في خلال هذه الفترة يعمل جاهدا ان يجنب نفسه واصحابه الذين يرون أحقيته في الخلافة مشاكل الصدام ، فيضرب أروع الامثال ، في المعاونة الجدية من أجل حفظ كلمة الاسلام .

فلقد تعاون مع أبي بكر ، وامعن في بذل النصيحة لعمر ، حتى ان ابن الخطاب نفسه يصرح في اكثر من مرة : « لولا علي لهلك عمر » ، غير ان عهد عثمان اختلف عن العهدين السابقين ، ونستطيع ان نتلمس مدى البعد في طرفي القضية من قولة قالها ابو سفيان في مجلس الخليفة ، وبمرأى منه ومسمع ، فقد دخل الى مجلسه ـ وهو أعمى ـ ثم تساءل هل في المجلس من يحتشم ؟ فيجاب بعدم وجود احد من يخشى منه . . تكلم يا صخر ما اردت ـ والخليفة جالس ـ يقول بكل صلافة :

والذي يحلف به ابو سفيان لا جنة ولا نار ، تلاقفوها يا بني أمية ، تلاقف الكرة ، انها فرصة واتتكم ؛ عضوا عليها باسنانكم فلا تفوتكم فتندموا .

ولو كان العهد جاداً في تطبيق الحكم الاسلامي ، لكان هذا التصريح الخطير كاف لاثارة غضب الخليفة عليه ، وانزال العقوبة في حقه ، فالدين ليس العوبة كما يشاء نفر ممن دخلوا الاسلام كرها . .

ثم مروان بن الحكم . فقد نقلت الرواية ان أم المؤمنين عائشة تخاطبه وتقول له : انها سمعت رسول الله (ص) يقول لابيك ، وجدك ـ أبي العاص بن امية ـ انكم الشجرة الملعونة في القرآن . .

وتقول له مرة اخرى : لعن الله اباك ، وانت في صلبه ، فانت

بعض من لعنه الله . . ثم أتمت قولها : فأنتم الشجرة الملعونة في القرآن .

وموقف الخليفة عثمان من هذا الرجل واضح ، فقد ردّ عليه جميع ما حرمه منه النبي (ص) ، ثم يكون له عوناً ، فيأمر وينهي مع علمه ان الاسلام قلب هذا الرجل الا ليصون نفسه من مكروه .

وإذ بلغ الامر الى هذا الحد ، فقد شمر ابو ذر للمعركة عن ساعديه ، وبدأ في التحدث جهارا عن موقف الخليفة ، وتوجيهه ، وان كان في سلوكه شيء من الصرامة والعنف . ولم يخف على عثمان ذلك ، فيحاول استرضاءه بشتى الاساليب .

ومنها ما روي ان الخليفة عثمان أرسل الى ابي ذر موليين له ، ومعهما مائتا دينار ، فقال لهما : انطلقا بها الى ابي ذر وقولا له ان عثمان يقرئك السلام ويقول لك : هذه مائتا دينار تستعين بها على ما بك . . فقال ابو ذر لهما : هل اعطى احداً من المسلمين مثل ما اعطاني ، فردا عليه : لا ، فقال لهما : فانما انا رجل من المسلمين يسعني ما يسع المسلمين . قالا : انه يقول هذا من صلب مالي وبالله الذي لا إله إلا هو ما خالطها حرام ، ولا بعثت بها إليك الا من حلال . فقال : لا حاجة لي فيها ، وقد اصبحت يومي هذا وانا من اغنى الناس . فقالا له : عافاك الله وأصلحك ما نرى في

بيتك قليلا ، ولا كثيرا مما يتمتع به ، فقال : بلى تحت هذه الأكاف (بردعة الحمار) الذي ترون رغيفا شعير قد أتى عليهما أيام فما اصنع بهذه الدنانير ، لا والله حتى يعلم الله اني لا اقدر على قليل ولا كثير وقد اصبحت غنيا ، فرداها عليه ، واعلماه انه لا حاجة لي فيها ، ولا فيما عنده حتى القى الله ربي فيكون هو الحاكم فيما بيني وبينه . .

وابو ذر صلب في ذات الله يقول : أمرني حبيبي رسول الله بسبع : بحب المساكين ، والدنو منهم ، وان انظر الى من هو دوني ، ولا انظر الى من هو فوقي ، وان لا أسأل احدا شيئا ، وان اصل الرحم وان ادبرت ، وان أقول الحق وان كان مراً ، وان لا اخاف في الله لومة لائم ، وان اكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله . .

واذا كان رسول الله قد امره بقول الحق وان كان مرّاً ، وان لا يخاف في الله لومة لائم ، فلماذا نستغرب منه هذا الموقف الصلد تجاه الخليفة ، واستنكاره الشديد على آل ابي سفيان ، وآل ابي معيط ، وتوليهم رقاب الناس وابتزازه أموال المسلمين بغير حق .

ثم لماذا لا يأخذ بجانب علي بن أبي طالب ، وهو صاحب المكانة الرفيعة التي تحدث الرسول عنها : « يا علي لا يحبك الا مؤمن ، ولا يبغضك الا منافق » .

وان موقف الامويين واتباعهم معروف من بني هاشم ،

ويحكي ان ابا سفيان يقف مرة على قبر حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ، ويدوس بقدميه عليه ، ويقول : يا ابا عمارة ، ان الامر الذي اجتلدنا عليه بالسيف امسى في يد غلماننا اليوم ، يتلاعبون به .

وليت الامر وقف عند هذا الحد ، ليلزم ثورة ابي ذر ، وامثاله من الاتساع انما تعدى الى ابعد من ذلك ، فهو يقول صراحة وعلى ملأ من المسلمين وفي مجلس الخليفة عثمان مخاطبه قائلا : يا عثمان صارت اليك بعد تيم وعدي ، فادرها كالكرة ، واجعل اوتادها بني امية ، فانما هو الملك ، ولا ادري ما جنة وما نار .

ولكن هذا لا يحد من اندفاع الخليفة مع آل ابي سفيان ، وآل الحكم واضرابهما ويغرق عليهما الاموال بحيث يعطي مرة ابا سفيان مائتي الف دينار من بيت المال ، ويعطي في نفس اليوم مروان بن الحكم مائة الف ، وكان بيت المال وقفاً على هاتين الاسرتين فقط .

ومن الطبيعي وازاء هذا التهاون ان يتأزم الموقف ، وتبدأ الثورة ، ويكون ابطالها من امثال ابي ذر ، لتقوم الاعوجاج مهما كلف الامر .

ويعمد عثمان الى نفي ابا ذر الى الشام ، ومعاوية رجل صلب ماكر يستطيع ان يكبح جماح هذا الصحابي الثائر . ومن يكون ابو

ذر في عرف ابي يزيد ، وهو على شاكلة أبيه ، وحقده .

ومع هذا كله فقد خطط معاوية لان يستميل ابا ذر ويكم فاه ، كي لا تثور البهائم من حوله . فأرسل في بادىء الامر له مبلغ ثلاثمائة دينار . . وضحك ابو ذر تماما كما ضحك عثمان ، لن يختلفا بشيء ، يعتقد الرجلان ان العقائد والمبادىء تذوب بالمال والاغراء . وردها ابو ذر ، وقال للرسول : ان كانت من عطائي الذي حرمتموني من عامي هذا اقبلها ، وان كانت صلة فلا حاجة لي فيها . .

ومعاوية لا يقل خطورة عن عثمان ، فان اغرق الخليفة نفسه في تبذير اموال المسلمين فان معاوية قد تفنن في البذخ والترف ، وتبذير الاموال بحيث لم يتبق في القوس منزع . كما يقولون . . فقد بنى له قصرا أسماه « الخضراء » فيه ما يبهر العين ويسعد النفس ، وصرف عليه الكثير من بيت مال المسلمين

ولم يسكت ابو ذر على هذا الوضع ، بل أنتقده بشدة ، ودخل على معاوية وقال له : يا معاوية ان كانت هذه من مال الله فهي الخيانة ، وان كانت من مالك فهي الاسراف .

ولاذ معاوية بالصمت ، وماذا يقول ، وفي كلتا الحالتين مخالفة لله تعالى،ولكن ابا ذر لم يسكت ، دخل الجامع ، واخذ يخطب على الناس يقول :

لقد حدثت اعمال ما اعرفها ، والله ما هي في كتاب الله ، ولا سنة نبيه ، والله اني لا أرى حقاً يطفأ ، وباطلا يحيا ، وصادقا يكذب ، وأثرة بغير تقي ، وصالحا مستأثراً عليه . .

ودب الذعر في صفوف المرتزقة التي تعيش في ظل معاوية ، وضاقت ذرعا بأبي ذر ، فلم يسهل عليها وجود هذه الشخصية بين ظهرانيهم ولا بد من عمل شيء قبل ان يتفاقم الموضوع . وتقدم احدهم الى معاوية - وهو يتودد اليه ، ويظهر له من العطف ما يقرب به من قلب سيده ، يقول له : ان ابا ذر لمفسد عليكم الشام ، فتدارك اهله ان كان لك فيه حاجة .

وابتسم معاوية لصاحبه ، ورد عليه لا تستعجل الامور ، فلكل امر وقت . . لكن ليس هذا معناه ان طاغية الامويين سكت فعلا عن هذا الثائر الناقد . ولم يكن معاوية بحاجة لان يفهمه هذا المتزلف بخطورة ابي ذر ، فهو يعرف هذه الشخصية حق المعرفة ، ولكن قرر ان يتخذ الامر بالاناة والروية . وهدد معاوية ابا ذر بانزال العقوبة الصارمة عليه ان عاد لموقفه . ولكن هذا التهديد لم يحد من موقف ابي ذر ، فلم تمر فترة قصيرة حتى سمع معاوية صراخا على باب مجلسه يقول فيه : يا أهل هذا المجلس اتاكم القطار يحمل النار ، اللهم العن الآمرين بالمعروف ، التاركين له ، اللهم العن الناهين عن المنكر المرتكبين له . .

وما أن سمع معاوية الصوت حتى تغير لونه ، وتقطب وجهه وصاح بغضب : انه جندب يأتينا كل يوم فيصرخ على باب القصر ، أدخلوه علي يا غلمان . . فجيء بأبي ذر يقودونه ، ووقف امام معاوية ، فقال له بعنف : يا عدو الله ، وعدو رسوله ، تأتينا في كل يوم ، فتصنع ما تصنع . أما أني لو كنت قاتل رجل من اصحاب محمد بغير اذن عثمان لقتلتك ، ولكني استأذنه فيك . .

ولم يخشى ابو ذر هذا التهديد المبطن ، بل التفت اليه ، وبكل صلابة يكيل له الصاع صاعين : يا ابن ابي سفيان ما انا بعدو الله ، ولا لرسوله بل أنت وابوك عدوان لله ولرسوله ، اظهرتما الاسلام ، وابطنتما الكفر ، ولقد لعنك رسول الله (ص) ، ودعا عليك مرات الاّ تشبع . .

وسكت قليلا ابو ذر ليسترد انفاسه ، واشرأبت اليه الاعناق وحلقت عليه العيون ، بل استمر الرجل المؤمن بكل هدوء ، يتم حديثه ، يقول :

سمعت رسول الله (ص) يقول : « اذا وليّ الامة الاعين ، الواسع البلعوم الذي يأكل ، ولا يشبع ، فلتأخذ الامة حذرها منه » . .

وبغضب صاح معاوية قائلا : ما أنا ذاك الرجل .

فقال ابو ذر : بل أنت ذلك الرجل ، أخبرني رسول الله (ص) ، وسمعته يقول وقد مررت به : « اللهم العنه ، ولا تشبعه الا بالتراب » .

اهتز معاوية لهذه الجرأة ، وطاش صوابه ، وامر بحبس ابي ذر حتى يصله كتاب عثمان فيه ، وكتب لخليفته ، فرد عليه :

أن احمل جندبا إلي ، على اغلظ مركب وأوعره . فوجه به مع من سار به الليل والنهار ، وحمله على ناقة مسنة ، ليس عليها الا قتب ، حتى قدم به المدينة ، وقد سقط لحم فخذه من الجهد . .

والتقى بعثمان ، والخليفة يكاد يتفصد غضباً :

عثمان : أنت الذي فعلت ، وفعلت ؟

ابو ذر : نصحتك فاستغششتني ، ونصحت صاحبك فاستغششني .

عثمان : كذبت ، ولكنك تريد الفتنة ، وتحبها ، فقد افسدت علينا الشام .

ابو ذر : اتبع سنة صاحبيك ، ولا يكن لاحد عليك كلام .

عثمان : مالك وذلك لا أم لك .

أبو ذر : والله ما وجدت لي عذرا الا الامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

فغضب عثمان ، وامر الناس ان لا يكلموا ابا ذر ، ولا

يجالسوه . . ثم امر بابعاده الى الربذة ، ونودي في الناس الا يكلم احدا أبا ذر ، أو يشيعه ، وامر مروان بن الحكم ان يخرج به الى المنفى

انه الحل الوحيد للخليفة ان يبعد صاحب رسول الله وأحمد حواريه ويأمر بان يسكن في مكان اقفر لا يسكنه احد . انه الربذة ليعزل عن كل احد ، وهذا جزاءه .

وعم المدينة وجوم غريب ، ان الخليفة امر بابعاد صاحب رسول الله لانه يأمر بالمعروف ، وينهي عن المنكر ، واكثر من هذا يمنع من توديعه ، ويوكل في امره الوزغ ابن الوزغ ، ليزيد في ارهاقه . . هكذا كان امر الخليفة ، وهكذا سوط من لعنه رسول الله ، وهكذا حقد ابي سفيان . .

وغادر ابو ذر بيته ، تصحبه زوجته ، أو ابنته ، والقى آخر نظرة على مسجد الرسول ، وجلاوزة مروان يحاولون ان لا يتصل باحد ، فالامر يهم آل ابي العاص وآل ا بي سفيان اكثر مما يهم الخليفة نفسه .

ان مروان لا ينسى ذلك اليوم الذي وقف ابو ذر في مجلس عثمان يقول له دون خشية وخوف : ان الرسول الأعظم (ص) قال : « إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلا ، جعلوا مال الله دولا ، وعباده خولا ، ودينه دخلا » واستنكر الخليفة عثمان هذا الخبر ،

وكذب ابا ذر بذلك ، واستشهد بالامام علي (ع) ، فقال : إني لم اسمع الخبر ، ولكن سمعت من رسول الله يقول : « ما اظلت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة اصدق من ابي ذر » .

انه يوم سعيد لمروان ، يطير به فرحا ، فابو ذر ينفى الى الربذة ، ولكن ابا ذر اقوى من الحديد ، لم يتأثر من المهاجرين ، ولم يغضب على الانصار ، لانهم جبنوا ولم يخرجوا لتوديعه ، فانه يعذر الناس، انهم يخافون سوط مروان وارهابه .

وقبل ان يصل ابو ذر الى مشارف المدينة ، حتى كان علي بن ابي طالب واخوه عقيل ، والحسنان ، وعمار بن ياسر يقفون على قارعة الطريق بانتظاره ليودعوه ، ولمحهم الصحابي المبعد ، وتهلل وجهه اشراقا ، وتقدم الحسن لابي ذر ، فتصدى له مروان قائلا : إيهاً يا حسن ، ألا تعلم أن الخليفة قد نهى عن كلام هذا الرجل ، فان كنت لا تعلم فأعلم ذلك ، فحمل علي (ع) على مروان فضرب بالسوط بين اذني راحلته ، وقال : تنح لحاك الله الى النار . .

واضطرب مروان ، وهو يعلم ان علي بن ابي طالب لا يقتحم فرجع الى عثمان غاضبا ،وأوجسر قلب الخليفة عليه ، وتلكأت جلاوزته من الاقدام على شيء .

واحاط علي وبقية المودعين بأبي ذر ، وقال له بقلب جازع :

يا ابا ذر إنك غضبت لله ، ان القوم خافوك على دنياهم ، وخفتهم على دينك ، فامتحنوك بالقلى ، ونفوك الى الفلا ، والله لو كانت السموات والارض على عبد رتقاً ، ثم اتقى الله لجعل له منها مخرجا . . يا أبا ذر لا يؤنسنك الا الحق ، ولا يوحشنك الا الباطل

ثم التفت الامام الى اصحابه ، وقال : ودعوا عمكم . .

وتكلم عقيل بن ابي طالب فقال : ما عسى ان نقول يا ابا ذر وانت تعلم أنا نحبك ، وانت تحبنا ، فأتق الله ، فان التقوى نجاة ، واصبر فان الصبر كرم ، واعلم أن استثقالك الصبر من الجزع ، واستبطاءك العافية من اليأس فدع اليأس والجزع . .

ثم قال الامام الحسن (ع) : يا عماه ، لولا انه لا ينبغي للمودع ان يسكت ، وللمشيع ان ينصرف لقصر الكلام ، وان طال الاسف ، وقد اتى القوم اليك ما ترى ، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها ، وشدة ما اشتد منها برجاء ما بعدها ، واصبر حتى تلقى نبيك (ص) وهو عنك راضٍ . .

وتقدم الامام الحسين (ع) وقال : يا عماه ان الله تعالى قادر ان يغير ما قد ترى ، والله كل يوم هو في شأن، وقد منعك القوم دنياهم ، ومنعتهم دينك ، فما أغناك عما منعوك ، واحوجهم الى ما منعتهم ، فأسأل الله الصبر والنصر ، وأستعذ به من الجشع

والجزع ، فان الصبر من الدين والكرم ، وان الجشع لا يقدم رزقا ، والجزع لا يؤخر اجلا .

وبعد ذلك جاء الدور لعمار بن ياسر ، والغضب ملأ جوانحه قال : لاآنس الله من أوحشك ، ولا آمن من أخافك ، اما والله لو أردت دنياهم لأمنوك ، ولو رضيت اعمالهم لأحبوك ، وما منع الناس ان يقولوا بقولك الا الرضا بالدنيا ، والجزع من الموت ومالوا الى سلطان جماعتهم عليه ، والملك لمن غلب ، فوهبوا لهم دينهم ، ومنحهم القوم دنياهم فخسروا الدنيا والآخرة ، ألا ذلك هو الخسران المبين . .

وتأثر ابو ذر ، وكان شيخا كبيرا ، وقال : رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة اذا رأيتكم ذكرت فيكم الرسول (ص) ما لي بالمدينة سكنٌ ولا شَجَنٌ غيركم ، إني ثقلت على عثمان بالحجاز ، كما ثقلت على معاوية بالشام ، وكره أن أحاور أخاه وابن خاله بالمصرين ، فأفسد الناس عليهما ، فسيرني الى بلد ليس لي به ناصر ولا دافع الا الله ، والله ما أريد إلا الله صاحبا وما اخشى مع الله وحشة . .

وتعانق القوم ، وسار الركب ، وعاد المودعون الى بيوتهم ، وقلوبهم وجره ، ونفوسهم متأثرة . . والتقى علي بعثمان بعد برهة ، فقال له عثمان : ما عملك على رد رسولي وتصغير أمري ،

فقال علي (ع) : أما رسولك فاراد ان يرد وجهي ، فرددته ، واما امرك فلم اصغره .

قال عثمان : أما بلغك نهي عن كلام ابي ذر : فرد علي (ع) : أوكلما أمرت بأمر معصية اطعناك فيه ، قال عثمان : أعتد مروان من نفسك ، قال : ممّ ذا ، قال : من شتمه وجذب راحلته ، قال : اما راحلته فراحلتي بها ، واما شتمه اياي ، فوالله لا يشتمني شتمة إلا شتمتك مثلها ، لا اكذب عليك .

فغضب عثمان وقال : لم لا يشتمك ، كأنك خير منه ، قال علي : إي والله ومنك . . ثم قام علي وخرج من المجلس غاضبا .

ولم يثلج صدر المرقة الفسقة الذين احاطوا بالخليفة هذا الموقف بين عثمان وعلي ، وبلغ به الامر الى هذا الحد ، بحيث يصل ان يقول لعلي : كأنك خير من مروان . . ورسول الله يقول في علي : « ان رب العالمين عهد الي عهدا في علي ابن ابي طالب فقال : انه راية الهدى ، ومنار الايمان ، وامام أوليائي ، ونور جميع من أطاعني » ، ويقول لمروان : « الوزغ ابن الوزغ ، الملعون أبن الملعون » .

ان المرتزقة التي تحف بالخليفة تريد ان يكون البعد بين الخليفة وعلي ابن ابي طالب اكثر من هذا لتحافظ على مصالحها ، وعندما رأت موقف علي الصلب ، التفتت إلى مروان ، لتثير فيه

الضغائن : أأنت رجل ، جبهك عليّ ، وضرب راحلتك ، وقد تفانت وائل في ضرع ناقة ، وذبيان وعبس في لطمة فرس ، والاوس والخزرج في نسعة ، أفتحمل لعلي (ع) ما أتاه اليك .

فقال مروان للمحرضين ، وهو يرمقهم بنظرة غضب : والله لو أردت ذلك لما قدرت عليه[1] .

ولم يتمكن الشيخ ابو معاذ من الاستمرار في حديثه ، فقد سكت قليلا ، ومسح دمعة وطفاء عن عينيه الذابلتين تدحرجت دون ارادته ، بعدها واصل حديثه فقال :

عفى الله عن الخليفة لقد جرّ على نفسه الويلات ، وحملها ما لا يطاق ، وهل ينسى ذلك المجلس الذي قال فيه رسول الله (ص) :

« اني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي اهل بيتي ، انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، فانظروني ، بم تخلفوني » .

انه يأمر مروان وامثال مروان ان يسبوا عليا بعنوان انه يقتص منه ، والامام يضرب المثل الاروع اذ يبلغ صاحبيه حجر بن عدي ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، فيقول لهما :

« كرهت لكما ان تكونوا لعانين شتامين ، تشتمون وتبرؤن ،

(١) النصوص المثبتة نقلت عن شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد : ٨/ ٢٥٢/ ٢٦٢

ولكن لو وصفتم مساوى اعمالهم فقلتم من سيرتهم كذا وكذا ، ومن اعمالهم كذا وكذا ، كان اصوب في القول ، وأبلغ في العذر ، وقلتم مكان لعنكم اياهم وبراءتكم منهم : اللهم احقن دماءهم ودماءنا ، واصلح ذات بينهم وبيننا واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق منهم من جهله ، ويرعوي عن الغي والعدوان منهم من لهج به ، لكان أحب الي وخيراً لكم » .

فقالا : يا امير المؤمنين نقبل عظتك ، ونتأدب بأدبك . .

وما أبعد الفرق بين الانسانين . .

ويبقى ابو ذر في الربذة وحيداً منفياً . ولكن المدينة لم يغرب عن افقها ذكرى هذه الشخصية الصحابية الجليلة ، والخليفة عثمان ومن لف حوله ، بدأوا يخشون حتى ظل ابي ذر ، ورنين صوته يشق الفضاء : « فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب الي وخير لي من أن اسخط الله برضا عثمان . .

وفي الربذة ، وفي يوم من الايام يشعر ابو ذر ان أجله قد دنا منه فيقول لزوجته أو لابنته : لا تبكي ، فاذا مت فراقبي الطريق ، وسيمر بك ركب ، فاخبريهم عن امري فسيقومون بما يلزم .

ولفظ نفسه الأخير ، وهو يردد : « وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ان الله عليم خبير » .

وتقف المثكولة الغريبة على قارعة الطريق ، واذا بقافلة مقبلة

تجد السير فتلوح لهم ، فاقبلت عليها ، ووقف رجالها عندها ، فاخبرتهم بخبرها . وزاغت العيون ،وعلت الوجوه صفرة ، ابو ذر صاحب رسول الله ، وأحد حواريه يموت غريبا منفيا لانه قال كلمة الحق ، مغضب عليه الخليفة .

وجهزوا الثائر الذي خمد جسمه ، لكن ذكراه ، لم تخمد ، ودفنوه ، ثم انحدرت الدموع من عين كبير القافلة عبد الله بن مسعود ، وهو يقول : صدق رسول الله (ص) اذ قال : « يا ابا ذر ، تمشي وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك » . .

وبقي ابو ذر نبراساً في افق العقيدة ، ورمز الكفاح ضد الباطل وسيبقى هكذا ماكرّ الجديدان . .

عَاصِم بن ثابت بن أبي الأفلح

وتحدث الشيخ أبو معاذ في هذه الليلة ، وفي حديثه أكثر من ألم وحزن فقد كان يلحظ ان الزمن وان امتد بالمسلمين قليلا عن عهد الرسول الأعظم لكن جذور الأبناء الجاهليين لا زالت تنحدر الى الابناء ، وخاصة في البيت الأموي ، الذي ما زال عميده معاوية بن أبي سفيان يبرهن للناس ، أن الدنيا غنيمة فلا بد من استغلالها ، وحديث الآخرة له شأن آخر ، والقوم أبناء القوم ، وما في الآباء يرثه الأبناء .

كان حديثه في هذه الليلة ينطبق تماماً على الصراع العنيف الذي يدور بين الحق والباطل ، وما تصل إليه طبيعة الباطل مهما تقنعت بالبراقع .

قال :

لم تكن معركة احد إلا وليدة ثارات عنيفة لمعركة بدر ، فقد خسرت فيها قريش ، وتجللت بالعار والشنار ، وما كان ليشرق

هم صبح ، ويسعد مساءه بعد ما حصلوا عليه في بدر . ولقد استحالت تلك الجموع المخذولة إلى كتلة ملتهبة للثأر من محمد ، وراحوا يتحينون له الفرص ، لاشعالها حرباً شعواء يضرم أوارها أبو سفيان ، ويؤجج لهيبها عكرمة بن أبي جهل . وغيرهم كثيرون ممن هم على شاكلتهم

وكان منهم تصميم وعزم . . تصميم بلغ ذروته في اقتحام الحرب مرة بعد الأخرى ، حتى يبلغوا النصر . . وحدث ما حدث في أحد ، ولم تكن هذه المرة التي تطفىء اللهب ، كما لم تكن كسابقتها ببدر . وإن كانت قد حصدت من المسلمين رجالاً هم وزنهم ، وثقلهم كحمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وحنظلة بن أبي عامر وأمثالهم . وتوقفت قريش عن الاستمرار في الحرب ، لأنها تيقنت أنها لا تبلغ النصر من محمد ، فقد صمم أصحابه على الموت دون دينهم ، وقد أكلت المعركة منهم شجعاناً وأبطالاً . . فلملمت نفسها على مرارة الخيبة .

وعادت سلافة بنت سعد إلى مكة بالثكل والفجيعة ، بعد أن خرجت مع زوجها طلحة بن أبي طلحة ، وأولادها الثلاثة ، وهي تحلم بالنصر على أيدي فوارسها . . لكن نهار المعركة لم يغرب ، حتى كان الزوج ، وتبعه أولاده جثثاً هامدة في ساحة أحد .

وقد روعها منظر أحد أبنائها ، وهو يعالج نفسه ، في لحظاته

الأخيرة فتضع رأسه في حجرها ، وهي تمسح عنه الدم المتدفق بغزارة ، وتسأله بلوعة : يا بني من أصابك ؟

وتخرج الكلمات منقطعة متقطعة ، بين أنين الألم ، وحشرجات الموت : ما أدري ، ولكن سمعته وهو يرمي سهمه ، ويقول خذها ، وأنا ابن أبي الأفلح . . وخمدت أنفاسه في حجر أمه

لم يكن مصاب هذه الأم هيناً وسهلاً فقد كادت الوحدة تخنقها والحزن يقتلها ، فنذرت لآلهتها ، لئن تمكنت من قاتل إبنها لتشربن بقحفة رأسه خمراً . . ولم يكن هذا فحسب ، بل أعلنت في مجالس مكة وأنديتها ، ان من جاء برأس ابن أبي الأفلح فله مائة من الابل ، وله زيادة .

وانتشر الخبر في كل مكان ، وهو عطاء مغرٍ ، قد لا يكون له مثيل . . ومن الطبيعي ان يحرك هذا النبأ الكثير من العرب الذين يضحون من أجل عشر هذا العطاء فكيف بأجر سخي ، ويسيل لعابهم ، مائة من الابل ، وله زيادة ، وجدير ان يتحمل في سبيله كل الصعاب . .

وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح من اصحاب الرسول المقربين ، ومن الشجعان الأشاوس ، الثابتين في نصرة الدين ، وموقفه مع النبي في أشد اللحظات في معركة أحد ، يدل على انه من أولئك القلائل الذين وعوا الدعوة ، وتفانوا من اجلها فلم

تهزهم الغنائم ، كما هزت غيرهم ، ولم تستهويهم المطامع كما شأن الكثير ممن تسموا مسلمين وهم تبعوا الاسلام من أجل الغنيمة والمصلحة

واتخذت المخططات ترسم لاختطاف عاصم ، والحصول على الفائدة من وراء تلك العملية .

وانتشر في المدينة يوما ما ان وفداً من العرب قصد رسول الله (ص) وسيصل عن قريب ، وتكهن المتكهنون ، واحتمل المحتملون في شأن مهمة هذا الوفد

وكان المسلمون في عامهم الثالث من الهجرة ، لم تندمل بعد جراحهم من « أحد » كما لم تخف حقود العرب عما أصابها في « بدر » .

ولم تكن قريش وحدها صاحبة الثأر الاول ، بل هناك عدد من القبائل لا يقل غيظها وحقدها من قريش ، فقد اصيبت بما أصابها ، وهدّها ما كان لها من ذل وهوان . . فضمرت مثل ما ضمرت قريش لمحمد ، وتحينت الفرصة لتوقع بالدين الجديد مهما واتتها الظروف .

وقدم الوفد على النبي (ص) ، ولم يتجاوز عددهم العشرة . .

السلام عليك يا رسول الله . .

وعليكم السلام . . وممن الوفد ؟

من فتيان عضل والقارة من الهون بن خزيمة ، أحد بطون العرب .

اهلاً بكم وسهلا .

يا رسول الله ، ان في حيّنا من يرغب في الاسلام ، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ، ويقرؤوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الاسلام .

حسناً سوف يكون ما تحبون .

ونرغب أن يكون عاصم بن ثابت من جملة الوفد . .

وقرر النبي أن يرسل معهم وفداً مؤلفاً من ستة أشخاص ممن يحسنون القراءة ، ويحفظون القرآن ، ومنهم عاصم بن ثابت بن أبي الافلح .

وغادر الركب المدينة يودعهم كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وتستمد عيون عوائلهم وأطفالهم منهم المحبة والعطف ، انه سفر ، وقد يطول وقد يقصر . . وللقدر حساب فوق هذا وذاك .

واذا ما قطعوا مسافة طويلة ، بعدوافيها عن المدينة ، وفي

موضع بين مكة والطائف ، وفي وادي « الرجيع » أناخ المسافرون ركابهم ريثما يستريحون .

كانت خيمتان هنالك : تضم إحداهما ستة من صحابة الرسول هم : عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي ، وخبيب بن عدي وزيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق ، وخالد بن البكير الليثي . . والخيمة الأخرى تضم الوفد من عضل ، ويضم عدة أشخاص لا يتجاوزون العشرة . .

وانشغلت كل مجموعة بشأنها . جماعة الرسول في عبادتها وتقواها . . وجماعة الوفد بتآمرها ، وانجاز مهمتها . .

يا أبا شيبان ـ وهو كبير المتآمرين ـ ما رأيك أن ننقض على هؤلاء ونأخذهم اسرى لأبي سفيان ، فقد يجزينا بهم مالاً وفيراً .

لا يا جهم . . ان فيهم عاصم بن ثابت ، وهو بغية سلافة بنت سعد ، وقد أعلنت من أتاها برأسه فله عندها مائة من الابل ، وفيهم زيد بن الدثنة وهو الذي قتل أمية بن خلف مشاركا بلالا في ذلك ، وقطعاً سوف يدفع به صفوان بن أمية بن خلف مبلغاً كبيراً ليأخذ به ثأر أبيه .

وقاطعه أحدهم قائلا : لم نبعهم صفقة واحدة لأبي سفيان ، انما نطرق بهم القبائل فكل من يدفع بهم أكثر نتفق معه . . أنت

تعلم يا أبا شيبان لم تخرج لهذا الا من أجل المال الوفير ،وكنت أود أن يكون من بينهم اولاد لعلي بن أبي طالب واصحابه ممن وتروا العرب في بدر أو أحد . .

ولكن لا تنسى ، يا أخنس أن في هؤلاء من لا يقل شأناً ممن صمد مع محمد ووقف إلى جنبه في الشدائد ، وجندل صناديد العرب في المعركتين . .

وصاح بهم أبو شيبان : دعونا الآن من القيل والقال . فلنفكر كيف نأسرهم ، وكلهم من الشجعان .

وقال شيخ منهم : ارى ان نستعين بهذيل ولها بيوت على مقربة منا . . وما من شك أنها ستسهم في ذلك . .

ويقاطعه الأخنس . . ولكن ستشاركنا الغنيمة بعد بيعهم ، ولكن أبا شيبان أكد لهم ضرورة الاستعانة بهذيل . . وفعلاً تسلل بعضهم الى البيوت الضاربة على مقربة منهم . . وتم الاتفاق بين عضل وهذيل على تنفيذ الخطة . وفي جنح الظلام وصل عدد من الرجال الى خيمة المتآمرين .

ولمح احد الصحابة على ضوء القمر تجمعاً غير طبيعي في خيمة مرافقيهم وعاد يخبر مرثد واخوانه . . وكل شيء دار في ذهن هولاء الا الغدر . .

كان شيء بعيد عن طباع العرب الخيانة والغدر . لكن النفوس الضعيفة الجبانة ، والحقد الذي يعصب عيونهم ، قد يدفعهم الى ارتكاب كل دنيئة ، وان كانت تتنافى مع العرف العام وعدم الاهتمام بأي قواعد واصول تداولت في دنيا العرب .

ولم يبزغ فجر تلك الليلة ، حتى تكشفت النوايا الخبيثة ، وما تضمره النفوس الشريرة لصحابة رسول الله (ص) .

واحاطت الجموع بخيمة المسلمين ، وتقدم منها أبو شيبان ليكلم أصحاب الرسول بحقيقة الأمر ، وانهم يتمكنوا من الحفاظ على أنفسهم ان لم يقاوموا ويستسلموا ، وبغيتهم الاستفادة المادية من وراء أسرهم وأعطوهم المواثيق والعهود على ذلك .

لكن عاصم بن ثابت قال لهم : لا عهد ولا ذمة لكافر ، ان اعداء الله لا يؤمن من غدرهم ، وصمم على أن السيف بينه وبينهم .

وأكد أبو شيبان قوله : يا أصحاب محمد ، إنا ما نريد قتلكم ، ولكنا نأمل أن نصيب بكم مالاً من أهل مكة ، ولكم العهد والميثاق .

ولم يُطمئن هذا القول عاصماً وبعض أخوانه ، فصمموا على الدفاع عن أنفسهم مهما كلف الأمر .

واستدت الأيدي إلى الصوارم ، استعداداً للقتال .

لم يمر نهار ، أو يهجع ليل ، وسلافة على بركان ، لم تقر عينها بشيء ولم تفرح بمناسبة ، فهي تغص بفجيعتها ، وترزح بمصابها ، ولم يغب عنها منظر زوجها واولادها : مسانع ، والجلاس ، وكلاب ، وهم يصارعون الموت بيد أصحاب محمد . .

لا تنسى أبداً ذلك المنظر كلما أشرق عليها صبح ، وأوغل ليل . . وطلحة (كبش الكتيبة) . لا يسكن بركان هذا الحقد الا راس ابن أبي الافلح ، يمثل بين يديها . فتعمل به ما تشاء ، وكما تريد ، لعله يخف منها حزن ، ويهدأ لها روّع .

ولو فاتح المخططون لاختطاف عاصم سلافة مسبقاً لما توقفت من بذل الكثير الكثير ، وزادت عطاء على عطاء ، واكراماً ايما اكرام ، فهو بغيتها وضالتها .

كان الأبطال من أصحاب محمد على أهبة لأي هجوم يقع عليهم ، والمتآمرون يهتمون بأن يصبح هؤلاء الأسرى بأيديهم دون قتال . . ولم يتحمل أبو شيبان الموقف ، بل هاجم وفد الرسول . ودارت رحى المعركة زمنا ، وانكشفت الغبرة واذا بثلاثة من الوفد قد لاقوا مصرعهم ، كان منهم عاصم بن ثابت .

وحدثت المشكلة بينهم ، حصة من سيكون رأس هذا الصحابي ، وازائه مائة من الابل من سلافة ، وكل منهم لا يأمن بالأخر . . وصاح أبو شيبان ـ وهو كبيرهم ـ الجميع يشتركون في الجائزة ، وهدأت النفوس الطامعة .

وشهر أبو شيبان سيفه ، وتقدم إلى جسد عاصم ليحز رأسه ، وهاله ما شاهده ، وصقع لما سمع . . شاهد ظلة من النحل تحوم حول جسد الشهيد وسمع دوياً هائلاً لها ، أثار الرعب فيه .

وصاح على الجميع أن يقبلوا لمشاهدة هذا المنظر ، ولم يمر على قتل الرجل وقت طويل . . وعلت الوجوه دهشة وحملقت العيون تعجباً ، وخفقت القلوب وحشة . . وقال قائلهم : لو انتظرنا الى المساء ، فاذا جن الظلام ، فستذهب الدبر ونأتي لبغيتنا ، وناخذ رأس عاصم . .

وقُيّد البقية من الصحابة ، فاذا ذهب ثلاثة من الغنيمة ، فالباقون ثلاثة ، ورأس عاصم ، وهذا ما يكفي لنيل الجائزة والمال الوفير .

وزحف الظلام ، وعيون القوم مشدودة الى الأفق . . ولكن الأمل لم يشرق فقد وافت السيول ، تهدر بطغيانها ، حتى ملئت الوادي ، وجرفت معها جثة عاصم الى حيث لا يعرف أين اختفت .

لقد كان عاصم مؤمناً ، وعندما قابل المتآمرين ، رفع طرفه الى السماء مخاطباً ربه الكريم : « الهي أني قد حميت دينك ، فاحمي جسدي من الاعداء » .

وخابت الآمال ، فقد ذهبت المائة من الابل ، وتهدمت آمال القرشية فهي بانتظار رأس عاصم ، وتهاوت أطماع المتآمرين ، وبقي عاصم نوراً يشع في ذكراه الخالدة .

وصاح أبو شيبان بجماعته : لايهمكم ففي الباقين الكفاية . .

وقيدوا البقية من الصحابة وتوجهوا بهم إلى مكة ، حيث الطالبين بالثأر ، ابو سفيان واحزابه . . وفي منعطفات الطريق ، وفي وادي من وديان مكة تمكن عبد الله بن طارق من الافلات ، وامتشق حسامه ، فتجمهروا عليه ، واخذوا يرمونه بالحجارة حتى مات قتيلا .

وصاح الأخنس بالركب جدّوا بالسير يا قوم ، فان غنيمتنا تضاءلت واخشى أن نخسر الاسيرين أيضا . . وجدّوا بالسير . وبدت مشارف مكة ، وسبقهم الخبر ، وسارعت قريش وغيرها الى الصفا حيث يعرض الاسيران . .

وتلملمت الناس من هنا وهناك . ما أعظم هذه الصفقة . وفرح المتلامرون بهذه الجماهير ، ان سعر الاسيرين سيزداد . .

ووقف أبو سفيان وسط هذا الحشد يصرخ : أتعلمون من هذين الاسيرين ؟ آه لقد تذكرت أمية بن خلف بطل قريش ، وهو يجود بانفاسه من سيف زيد بن الدثنة ، شريك بلال في قتله . . ولم يكن زميله خبيب بن عديل بأقل شأناً من زيد . . يا قريش ان هذين ممن عاثت سيوفهم باجسام أبطالكم . وممن أخلصوا لمحمد وسوف أكشف لكم وفائهم لصحابهم . وكيف سحرهم ؟

ثم يلتفت الى زيد قائلا : أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه ، وانك في أهلك .

وانتفض البطل المكبل ، وبكل ثبات واخلاص رد على أبي معاوية ، واخرسه قائلا له :

والله ما أحب أن محمداً الان في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه واني جالس في أهلي . .

وطاف وجوم على المستمعين ، ثم التفت أبو سفيان إلى خبيب بن عدي قائلا له : لو تبرأت من محمد ودعوته اطلقنا سراحك . .

وتعالت من الاسير الصامد ضحكة هزت كيان أبي سفيان ، وتركه مرهقاً بالامه ، مخزياً بعاره ، ولم يجبه بأكثر من هذا . .

والتفت أبو سفيان إلى اصحابه ، وهو يقول لهم : التفتوا الى

حبهم لصاحبهم ما رأيت احداً من الناس ، يحب احداً كحب أصحاب محمد محمداً . . لا أدري كيف فتنهم وسحرهم . .

وابتاع زيد بن الدثنة صفوان بن أمية بن خلف ، وخبيب بن عدي ابتاعه حجير بن أبي إيهاب . .

وانتقل الاسيران الى القرشيين، وعقدت الجلسات ، ودارت الأحاديث ، وكل واحد له رأي في هذين الأسيرين . وابو سفيان وأحزابه يتعجلان القتل لهما ، ويخشون التأخير ، ففي التأخير آفات . .

ونادى المنادي في قريش وغيرها : غداً موعدكم في « التنعيم » لتشاهدوا حساب زيد بن الدثنة قاتل أمية بن خلف .

وزالت الشمس ، وتوافد القوم على « التنعيم » . . كلهم ينتظرون مشهد المأساة ، أنها قلوب قاسية لا ترجو رحمة الله . .

وأطل موكب زيد . . رجل قد تجاوز العقد الخامس من عمره مديد القامة صبيح الوجه ، يداه مكبلة بالحديد ، وحوله عدد من العبيد بايديهم السياط ، وأمامهم رجل قد بدى الغضب في عينه ، وقطب وجهه ، وبيده سيف طويل . .

وصعد زيد التل بقدم ثابتة ، ولسانه يلهج بذكر الله ، ولم يبدو على وجهه أي إرتباك أو اضطراب . واستقبل المدينة بوجهه

وقال : السلام عليك يا رسول الله . إدعو الله لان يحشرني معك يوم القيامة .

وذهل الطاغية أبو سفيان ، وادار نظره في الجمع المحتشد ، واللوعة تكسو وجهه الداكن وخاف العاقبة ، فقد أثر هذا المنظر في نفوس الكثيرين ، وأشار لصفوان بان يقضي مأربه منه . . ولم تمر لحظة الا وكان رأس هذا الصحابي الجليل يتدحرج في الساحة بعيداً عن جسده ، وبسمة ساخرة تطفو على ثغره الكريم وهل أنطفأ الحقد والحسد بقتل زيد ؟ . وفي مساء ذلك اليوم تحدثت أندية مكة عن صلابة هذا الصحابي ، وكان الحقد يغلي اكثر ، فكلما أوغل الحاقد ، أزداد شراهة وشراسة .

ولم ينس الناقمون ان لهم يوماً جديداً مع عدد آخر لم تنتهي آمالهم . وان طال بهم الانتظار ، فلا بد من نهاية لهذا الليل .

لم يغرب عن ذهن أبي سفيان خبيب ، من أعدائه المبرزين والتقى بحجير بن أبي إيهاب التميمي ، فخاطبه باسلوب ينم عن تخابث : ألعلك عدلت عن قتل صاحب محمد ، وعطفت عليه ، ونسيت دماء الصناديد من قريش . . ان قلبك رحيم معه . .

وامتعض حجير من هذا التقريع ، وصاح بغضب . لا واللات والعزى لم أنس خبيبا . . حسبك يا أبا معاوية من التعريض . . غداً موعدكم « التنعيم » . وما انتظرت به الا انقضاء الاشهر

الحرم ، أما وقد انتهت ، فسوف نقتله شرّ قتلة ، بحيث يجزع منها صاحبه محمد . .

وطابت نفس أبي سفيان لهذا الامر ، وإن غداً لناظره قريب .

ومرة ثانية الى « التنعيم » وزحفت الجموع الى ساحة الاعدام ليشهدو قتل بطل اخر من أبطال الاسلام .

ووصل خبيب ، ويده بيد الجلاوزة ، ورمق الخشبة التي سوف يرفع عليها ليقتل ، وتبسم ابتسامة الرضا . . والتفت الى حجير طالباً منه أن يسمح له بالصلاة ركعتين . .

فاذن له بالصلاة ، وارتفع صوت من الجانب الثاني . . صلي يا خبيب لربك ان نفعتك صلاتك . .

ولم يهتم الرجل المؤمن لهذه الاحاديث ، بل استقبل القبلة وصلى لخالقه ركعتين ، لتكون خاتمة حياته ذكرى الله ، ما أروع هذا الختام ، وأقبل على القوم ، وهو يقول :

إما والله لولا ان تظنوا إنما طولت جزعاً من القتل ، لاستكثرت من الصلاة . .

وصعد الى خشبته بقدم ثابتة ، وصلابة متناهية ، وأوثقوا يديه بها وكانت نظراته تبعث الرعب في نفوس المحتشدين .

وبصوت مرتفع ملؤه الرهبة صاح :

اللهم إنا قد بلغنا رسالة نبيك ، فبلغه ما يصنع بنا . اللهم احصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحداً . .

واضطربت الجموع من هذا الدعاء . حتى قال معاوية بن أبي سفيان - فيما بعد - كنت فيمن حضر هذا المشهد ، فقد أصابني من الرعب الشيء الكثير . .

وصاح أبو سفيان ، ما انتظاركم بالرجل . . أقتلوه . . أقتلوه ، وتناوب عليه رجلان بالحراب طعناً حتى مات ولم تند عنه آهة أو زفرة .

ونفرت آهة طويلة من صدر زعيم الأمويين . . ما هذا الحقد الذي يأكل قلبه ، فيمتص أضواء عينيه . إنه يكره محمداً ويكره أصحابه ، وكلما توغلت الأيام فرشت للدين الجديد أضوائها . وازداد أبو سفيان حقداً لها . .

وفي الوقت الذي يلفظ خبيب أنفاسه الأخيرة بين حراب أعدائه ، كان الوحي يطل على رسول الله يحمل الآية الكريمة ، وهو في المدينة :

ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله . . والله رؤف بالعباد .

ويترحم الرسول الأعظم على شهداء يوم « الرجيع » أبطال

الاسلام الخالدين وأصحاب النبي المخلصين . .

ما أرخص الفداء في سبيل العقيدة عند العقائديين . ويبقى « يوم الرجيع » ، مناراً للبطولة الخالدة لأصحاب النبي (ص) . .

عبيدة بن الحارث بن المطلب

كانت الليلـة مشرقـة في سمائهـا صافية في حديث الشيخ أبـو معاذ ، فقد تحدث ، وهو يوزع نظراتـه الرقيقـة في الجالسـين ، قال :

كلمة حاسمة ، لها وقعها ومغزاها ، ألقاها الرسـول (ص) على عمه ابي طالب :

« يا عم ، والله لو وضعـوا الشـمس في يمينـي ، والقمـر في يساري على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله ، أوأهلك فيه لما تركته » .

ولم يستغرب ابو طالب من أبن أخيه هذا الثبات والاصرار . وهو أعرف به من غيره ، كفله صغيراً وقام بحمايته كبيراً ، واختبر صموده ، وعرف أهدافه .

لكنـه كان مضطـراً لان يحـدث محمـداً عما جاء به اشراف

قريش ، وكبارها وهم يشكون محمداً :

يا ابا طالب ان أبن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه احلامنا ، وضلّل آباءنا ، وافسد شبابنا ، وفرق جماعتنا . بحق اللات والعزى أكفف عنا ابن اخيك . .

ويصمت الرجل الوقور شيخ الابطح ، وسيد بني هاشم ، ثم يقول لهم مقالة رجل حنكته الأيام : سأكلم محمداً ، وأقول لكم

ويعود القوم ـ وفي أنفسهم اكثر من زفرة ـ ينتظرون قول أبي طالب بشأن ابن أخيه .

ويصبح الصباح ، وفناء الكعبة يضيق بحلقات الناس من قريش وغيرها ، ولم يكن حديث لهم الا حديث محمد ، ودعوته الجديدة ، وهي كنور مشرق تلتهم الأفق لتحيله ضياء .

وابو لهب وزمرته مسعورون حنقاً وغيظاً ، وقد لفتهم حلقة خاصة تتجه اليها أنظار الجالسين ، والكل يعرفون ان هذه الحلقة أكثر الناس بغضاً لمحمد ودعوته .

وتصاعدت الهمسات تطوي آفاق الكعبة ذعراً هذا محمد على الصفا يتحدث ، وحوله علي بن أبي طالب ، وتشرأب الاعناق اليه لتسمع حديث هذا الطارق الجديد ، ومقالته :

« يا معشر قريش ، يا معشر العرب : أدعوكم إلى عبادة الله ، وخلع الانداد ، والأصنام . أدعوكم الى شهادة أن لا إله إلا الله واني رسول الله » .

ويزوّر أبو جهل ، ويدبر وجه العاص بن وائل ، ويتلعثم أبو لهب ، ويلتفت إليهم الوليد بن المغيرة قائلا : وهبل جُن محمد بن عبد الله . ويهز أمية بن خلف كتفيه غضباً ويدمدم : يريد منا هذا ان ندع ثلاثمائة وستين آلها ، ونعبد آلها واحداً لا كان ذلك ابدا . .

وحديث محمد لم ينتهي ، ولا نداءه ينقطع ، حديثه يسري في النفوس مسرى العطر ، ونداؤه يمور كرعشة الفجر تهز الظلام في العقول .

ويعاود القوم حديثهم مع أبي طالب ، وهو الذي يحميه من بطشهم وفتكهم . ويقصده ، جمع منهم ، وعلى ملامحهم غضب وحنق :

يا أبا طالب : إن لك سنا ، وشرفا ، ومنزلة فينا ، وقد استنهيناك من ابن أخيك ، فلم تنهه عنا ، وإنا لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه احلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله ، وإياك حتى يهلك أحد الفريقين . .

ويسمع الرجل الكبير المتحمل مسؤولية ابن أخيه على كتفه ،

ووصية ابيه في شأنه . يسمع هذا الهدير الصاخب ، ويكاد يحرق الأفق تفجرا ، ثم يعدهم بعد صمت طويل سوف يحدثه في هذا الشأن .

ويقص شيخ الابطح على ابن أخيه حديث قريش وغيرها من قبائل العرب ، وعلى شفتيه رفة إيمان ، فهو يعلم بأن محمداً على حق في دعوته ، وأن فيها خير الدنيا والآخرة . . وهو يعلم أن حديثه لن يرد محمداً ولن يثنه عن عزمه .

غير أنه لا بد أن يتحدث معه بشأن القوم ، ويعمل على دفع الأذى عن ابن أخيه ومحمد هو ذاك الصامد الثابت ، لا يهزه وعيد المشركين ، ولا يقف في وجهه تهديد ونذير . طالما أنه على الحق ، وأن أبا طالب إلى جانبه يذب عنه ، ويحميه غائلة الحاقدين .

وبعد يرد الرسول (ص) :

لا بد يا عم أن أمضي بما أمرني ربي ، مهما كانت النتائج .

وتكفي هذه الكلمات المقتضبة أن تؤكد للعم الحنون ثبات ابن أخيه ، وعزمه ، فيلتفت إليه بوداعة الانسان المطمئن ليقول : « أشهد أنك صادق في دعواك ، يا علي : ألزم ابن عمك ، فانه خير الخلق ، ويدعو إلى الحق ، والمنهاج المستقيم ، وأنه رسول رب العالمين » .

وتكفهر الايام في وجه هؤلاء المناوئين لدعوة محمد تحصد منهم هذا وذاك ، وهم لا يملكون القدرة على ابناء القبائل حينما تجلبهم الدعوة الجديدة فينتهون اليها ، ويؤمنون برسالتها ، لكنهم مع الضعفاء لم يملكوا طريقاً لتعذيبهم الا سلكوه ، وهم، هم - على ضعفهم - قلة، أقوياء . قد دخل الايمان في قلوبهم فصهرها بحرارته ، وحب محمد يتأجج في أضلاعهم فيزيدهم ثباتاً وعزماً . حتى كانت التضحية في سبيل عقيدتهم وايمانهم ، إيماناً وعقيدةً .

وضاق القوم ذرعاً بهذا الأمر ، لم يخفف من دعوة محمد أي غضب لقريش وأعوانها ، ولم ترهبه ضراوة النار والحديد على جسد اصحابه من الضعفاء فيلين ، ولم يزده استهزاء المستهزئين ، وعبث الحاقدين به وبدعوته إلا استمرارية ، وتصاعداً في الدعوة .

وطاف في آفاق قريش ومجالسها ان عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصى القريشي المطلبي قد آمن بدعوة محمد . ووقع عليهم هذا النبأ كوقع الصاعقة ، فأبو معاوية من شخصيات قريش وأبطالها ، وسوف تكون للدعوة شأن جديد بعد اسلامه .

وعز على قريش وصحابتها ما يرون من تعاظم أمر محمد ، وهو يجتث رواسبها بتحقير آلهتهم وتسفيه آرائهم ، والاستخفاف باصنامهم .

وكان لا بدان تحكم أمرها بلون ما ، قبل أن يستفحل الخطب عليها فيأتي على الاخضر واليابس منها وفي دار الندوة أجتمع كل اولئك الذين هددتهم الدعوة المحمدية وكبر عليهم مسرى الفجر المقدس يحصد من عيونهم القاسية ضوئها ، ومن نفوسهم المريضة قوتها .

وفكروا بجد ماذا يفعلون ؟ ، وقال قائلهم : لو أبعدنا أبا طالب عنه هان أمره ، ولكن ابا طالب لا يعطي من نفسه على أبن أخيه مجالاً ، انه مُغرم به ، ومولّه فيه ـ كما يقولون ـ .

لم يكن ابو طالب مغرماً بابن أخيه لعاطفة حب ، فله من الاولاد اربعة ، وهو سيد بني هاشم ، ولم تهزه الحمية القبلية حناناً على محمد . انما هو أبعد من ذلك جداً .

ان أبا طالب ليتذكر جيداً عندما كان يوضع لابيه عبد المطلب فراشا في فناء البيت العتيق فلا يجلس عليه احد احتراماً لسيد قريش ، ومن حوله أولاده وذويه ، فيخرج محمد ، وهو صغير السن يتخطى الكل حتى يصل الى جده فيشاركه مجلسه . . ويهرع الأعمام إليه محاولين تنحيته عنه ، فيقول لهم الرجل الوقور ، زعيم مكة ، وكبير بني هاشم : « دعوه وشأنه فوالله إني أرى أنه سيأتي عليكم يوم ، وهو سيدكم ، اني ارى غرته غرة تسود الناس » ثم

يأخذه فيمسح ظهره بيده و يقبله ، ويقول : ما رأيت قبلة أطيب منه ، ولا أطهر قط .

ويلتفت الى ولده أبي طالب ويقول : « إن لهذا الغلام شأناً عظيماً فاحفظه واستمسك به ، وكن له كالأب لا يوصل إليه بشيء يكرهه » .

ولم يكن هذا فقط ، انما كان اكثر من هذا ، فعبد المطلب ، ـ وهو ذلك المؤمن البعيد ـ في غمرات الموت يستدعي أبا طالب ، ويدفع له الحفيد ـ الذي بلغ من العمر ثماني سنين ـ ويقول له : ـ وسكرات الموت تتناوب على شفتيه ـ « ليكون هذا من جسدك بمنزلة كبدك ، وان أدركت أيامه فأعلم اني كنت من أبصر الناس ، ومن أعلمهم به ، وأن استطعت أن تتبعه فافعل وأنصره بلسانك ، ويدك ، ومالك ، فانه عن قريب سيسود ، ويملك ما لم يملك أحد من آبائي » .

ثم يقول الأب المسجى وهيبة الموت تزيده روعةً وعظمة : هل قبلت وصيتي ؟ . ومن أعماق الانسان المشكول يجيب الوصي المؤتمن أبو طالب : نعم قد قبلت ، والله على ذلك شاهد وكفيل .

وتخر كلمات جاهدت من فم عبد المطلب « الآن خف عليّ الموت » والحفيد على صدره مشدود الى جده في آخر لحظة ، من أيامه الرائعة الشامخة .

وإذا خانت الأيام بالحفيد فاخذت منه جده الذي اغدق عليه كل حبه وأسبغ لأجله جم رعايته ، فقد لمس في صدر عمه حناناً أوسع ، ورعاية اكبر يعجز عن ادراكهما تصور وتفكير .

وحق لقريش أن تفكر في أبعاد شيخ الأبطح عن بغيتها ، فاذا تم لها ذلك ـ وهو بعيد ـ انهت حسابها مع مسفّه احلامها ومعيب آلهتها ، ومهين أصنانها .

وبعد جهد من التفكير خطر لها ان تقايض أبا طالب فتى بفتى ، وكان عليها أن تختار أنهد فتى وأجمل طلعة لتغري به الشيخ المولّه بحب ابن أخيه .

وقال قائلهم : عليكم بعمارة بن الوليد بن المغيرة ، أنهد فتى في قريش وأجملهم وجاءوا به الى مجلس أبي طالب ؛ وتكلم متكلمهم :

يا أبا طالب جئناك بعمارة بن الوليد ، أبهى فتى في قريش وأجمله وأرجحه ، فخذه اليك ، يكن لك بمحل محمد ، وادفع إلينا محمداً ، فإنما هو رجل برجل .

وبان التأثر على وجهه الكريم ، ماذا طلب منه هؤلاء القوم المحتشدون في مجلسه ؟ يا لضيق الأفق ، ونزرة العقل . ماذا طلبوا منه ؟ ثم هدر في وجوههم :

ما انصفتموني ـ يا قوم ـ تسألوني أن أدفع إليكم ابني لتقتلوه ، وتدفعون إلي ابنكم لاقوم بتربيته . يا لسفاهة القول ، وقلة العقل ، انكم مجانين ، سخفاء بهذا الطلب .

وتفرق القوم وعلى سيمائهم أنطبع اليأس ، وقام أبو طالب من مجلسه يبحث عن محمد ، ومعه حشد من اولاده وقومه ، فلما لقاه ناداه :

يا محمد : ان هؤلاء زعموا انك تؤذيهم ، فانته عن اذاهم ، فقال : أترون هذه الشمس ؟ فما أنا باقدر على أن أدع ذلك .

فقال ابو طالب : والله ما كذب ابن أخي قط ، أذهب فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه ابدا .

كان عبيدة بن الحارث على مقربة من محمد ، لا يستطيع الابتعاد عنه ، ولا يطيق مفارقته ، فقد ارتبط معه برباط وثيق . رباط الايمان والعقيدة ، وعلى مر الأيام تتوثق وتزداد اتصالاً .

وكان عبيدة أسن من رسول الله (ص) بعشر سنين ، وكان إيمانه بدعوته قبل دخول الرسول (ص) دار الارقم . وكانت الدعوة تنتشر هنا وهناك ، كأنها أرج العطر الكريم فيميل إليها هذا وذاك .

ولم تهدأ قريش ، ولم يخف أوار المعادين ، وانها لتفكر فيما تعمله

مع محمد ، وقد زحف بدعوته يلامس القلوب الصافية من عبادة الاوثان ، فينتشلها من ذلك الظلام الدامس ، ليصعد بها الى إنسانية الانسان ، والى القيم القيمة .

ولماذا لا تفكر هذه الطغمة التي هددتها دعوة الحق ، وبددت آمالها العريضة بين عشية وضحاها ، حتى ان المستضعفين من رجالهم أصبح لهم شأناً .

وما لهم بعد ملجأ في أبي طالب ، انه كما يقول عنه شيخهم ابو لهب

دعوا عنكم هذا الشيخ فانه مغرم بابن أخيه ، والله لا يقتل محمد ، حتى يقتل أبو طالب ولا يقتل ابو طالب ، حتى تقتل بنو هاشم كافة ، أتركوه ولا تثيروها عجاجة لا يحمد عقباها .

لتحشد قريش فكرها ، وبراعتها في مخرج لها ، وقد ضايقها الموسم ، والحجيج على الابواب ، ماذا تقول لهم عن هذا الميلاد الجديد ؟ دعوة محمد تزحف ، رغم أنها مطاردة والمؤمنون بها قلة ، لكنها تنفث كنور الفجر ، تمور كعبق الورد في القلوب .

ويهرع عدد منهم الى الوليد بن المغيرة ، سيد من ساداتهم ، وكبير من كبارهم ، يتذاكرون معه الموقف . . وما أن يجتمع بهم المكان ، حتى بادرهم الوليد بالكلام - وقد عرف مقصدهم - قال :

يا معشر قريش : انه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فاجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضا . قالوا : فانت يا أبا عبد شمس فقل ، واقم لنا رأياً، قال : بل أنتم فقولوا اسمع، قالوا: نقول كاهن، قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ، قالوا : فنقول مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ، ولا تَخَالجهُ ، ولا وسوسته : قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه ، وهزجه وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار ، وسحرهم ، فما هو بنفثهم ، ولا عقدهم ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن اصله لعذق ، وإن فرعه لجناة . وما انتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل .

وان اقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء واخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ؛ فتفرقوا عنه بذلك .

يقول القائل : فجعلوا يجلسون بسبل الناس - حين قدموا

الموسم ـ لا يمر بهم احد ألا حذروه إياه ، وذكروا لهم امره .

وإذا ما أمعنا في هذا الحوار الذي دار بين الوليد ، وبين اصحاب الرأي من قريش ، يتجلى لنا واضحاً مدى الهلع الذي اصاب القوم من الدعوة المحمدية ، وقد كلّت اغلب السبل لديهم في محاربتها حتى اضطروا الى هذا السبيل ، فليسلكوه عسى ان يطفيء سعيرهم .

لكن هذا الاسلوب لم يمنع الهمس المتصاعد في الموسم الى أن ينقلب حديثاً صريحاً عن محمد ودعوته ، وهذا ما كانت تخشاه الطغمة المعاندة ، وخاصة عندما طرقت سمع قسم منهم ايات من القرآن الكريم ، فكان له تأثير عجيب في بلورة النفوس ، ومزجها ـ ولو نسبياً ـ بهذه الدعوة الفتية الانسانية .

وخيم الغم على هذه الوجوه ، ماذا يعملون ، ولا بد من عمل ؟ . صوت محمد بدأ يلف الأفق وصحابته تطوف من حوله ، لم ينفع معهم الوعيد ، ولا يرهبهم التعذيب . . وأكثر من هذا فمن ترسله إليه ليقف على خبره يعود مبهوراً ، وان لم يظهر ذلك ، ففي أعماقه اعجاب ، وعلى سيمائه عناد . واختاروا طريقاً اخر ، عله ينجح ، وهو ان يرسلوا الى النبي من يمنّيه ما يريد ويشاء من جاه ومال ، ويكف عن دعوته . . واتوا إليه ، وهو في مجلس مع آله واصحابه .

يا محمد ، إنا قد بُعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الاباء ، وعبت الدين ، وسفهت الاله ، وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك ، فان كنت إنما جئت بهذا الأمر تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودّك علينا ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذي يأتيك رُئيًّا تراه قد غلب عليك ، فربما كان ذلك بذلنا لك اموالنا في طلب الطب لك حتى نُبرئك منه ، أو نُعذر فيك .

وفرغ رُسل قريش من حديثهم وعيونهم مشدودة الى محمد بماذا يُجيب .

لم تكن المسألة - كما يتصورها هؤلاء - مادية أو عاطفية ، يحاول من ورائها الرسول كسباً ومغنماً . . أبعد من هذا بكثير لا يرقى إلى مستوى تفكيرهم ، ولم يبلغوا منه مقصدا .

ومن الطبيعي جداً ان يقول لهم الرسول : « ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به اطلب اموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولا ، وأنزل علي كتابا وأمرني أن اكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا

والآخرة ، وان تردوه عليّ أصبر لامر الله حتى يحكم اللـه بيني وبينكم » .

وقرأ عليهم النبي (ص) آيات من القرآن العظيم .

لقد سمع عتبة ، وهو من الد أعداء النبي ـ آيات من القرآن يرتلها محمد على أصحابه ، فمد اذنيه ليسمع ما يقرأ :

« ان الله يأمر بالعدل ، والاحسـان ، وايتـاء ذي القربـي ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلـكم تذكرون . واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون » .

رائع هذا الكلام ، يهز الانسان يا أبا عبد شمس ، وما يقوله بشر .

أسكت يا عتبة ما تقول : أسحرك الفتى بسحره ؟ بعثتنا قريش لنكفيها أمره فنعود اليها مأخوذين به .

هون عليك يا ابن المغيرة انها لحظة ومضت .

ويطـلان على الحشـد المجتمـع في دار النـدوة ، وتعالـت الاصوات ، ماذا ورائكما من محمد ، . . وكان عبيدة بن الحارث يسمع ولا يرده .

ولـم ينطقـا بشيء . ماتـت الـكلمات على شفتيهما ، فرت العبـارات خجلى ، لقـد سمعـت آذانهما محمـداً يرتـل آيات من قرآنه ، فادركتهما رجفة ، لما يعرفا اثرها الا انها قلبتهما

وضاق أمية بن خلف من هذا الوجوم فصاح بهما قولا ، ما رأيتما من هذا الساحر ، حتى عقل لسانكما .

ان الكلمات التي رتلها فيها روعة وحيوية ، ودعوة الى كل المثل والقيم والانسانية لم تعرفها تلك القبائل المتصارعة في الجزيرة من قبل .

والرسول الأعظم ضمّن الفقرة القصيرة التي تلاها عليهما الصورة التي يحملها كل انسان عن دعوته السماوية ، وغاياتها السامية ، وهذا شيء ليس من السهل تقبله لدى هؤلاء الذين أوصد الشرك قلوبهم عن الايمان

ولم يكن بالغريب على قريش أن تستمع لابي جهل بعد هذه المقالة :

يا معشر قريش ، ان محمـــداً قد أبـى إلا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا، وتسفيه آلهتنا ، واني أجلس له غدا ، حتى اذا سجد في صلاته ، آخذ اكبر حجر اطيق حمله أفضخ به راسه . فاسلموني عند ذلك ، أو امنعوني ، وليصنع بعد ذلك بنـو عبد

مناف ما بدا لهم قالوا : والله ما نسلمك لشيء أبداً ، فامضي لما تريد .

ولعل هذا الاسلوب ، هو اخر ما كان يتصور اتخاذه مع محمد ودعوته ، وهو لا يخلو من مشاكل .

فالنبي في حصن من أبي طالب ، وهذا لم يترك ابن اخيه بيد اعدائه يعملون به ما يريدون وكيفما كان فلا بد من سلوك هذا الطريق .

واذا سلم في هذه المرة من فتك أبي جهل ، فقد نال ابن الزبعري بغيته منه ، فقد لمحه يصلي في فناء الكعبة ، فعمد الى فرث جزور ، ورماه على رأس النبي ، وهو ساجد لله .

وذهب الرسول بالهيئة التي هو فيها الى عمه ابي طالب ، وشكى له امره .

- يا عم : من أنا ؟

- ولم يا ابن اخي ؟

- هل يرضيكم ان يعمد نفر من هولاء الموتورين ، فيعمل معي ما ترونه ؟

- من هم يا محمد ؟

- بالابطح يا عماه

ونهض أبو طالب ، والغضب يكاد يخنقه ، وخلفه عدد من أولاده وآل بيته ، وساروا الى الابطح ، يقصدون القوم . والقوم في نشوة من الفرح فقد ارضاهم عبد الله بن الزبعرى بما صنعه مع محمد فهذا الاسلوب من المقاومة قد يكون له تأثيره الكبير على تحطيم روحية فتى عبد المطلب ـ كما يحسبون ـ

واطل النبي عليهم ، ومعه أبو طالب ، وخلفهما عدد من بني هاشم ، وقد بدى عليهم تأثر عميق وهدأت الانفاس ، واختفت الضحكات ، وحاولوا التفرق ، لولا صوت ابي طالب يشدهم الى اماكنهم كالاخشاب المسندة :

ورب هذه البنية ، لا يقومن منكم أحد إلا جللته بالسيف .

ثم يلتفت الى النبي متسائلا : يا محمد أيهم الفاعل بك هذا . فاشار النبي الى أبن الزبعرى . فدعاه أبو طالب ، وجرّ قدميه جراً الى سيد الاباطح ، حتى اذا ما وصل اليه ضربه على انفه حتى أسال منه الدم ، والتفت الى ولده ، وأمرهم ان يمروا بالفرث والدم على رؤوس الجالسين ، ولم يسلم منهم احد .

واخيراً قال لمحمد : يا ابن اخي أرضيت ؟

وهذا الموقف الصارم يكفي لاثارة الخوف في نفوس المشركين ، فيكفوا قليلاً عن أذية النبي ، لكن اصحابه ، وخاصة اولئك الذين لم يكونوا من ابناء القبائل ـ قد اصبحوا عرضة للتعذيب

والتنكيل ، يعانون من قساوة القوم ، ومرارة العذاب ما يعجز عنه الحديث .

ان سمية أم عمارة وزوجها ياسر بن عامر يموتون تحت سياط الطغمة من قريش ، وان غيرهما كثيرون ممن عانوا من ظلم واذى الحاقدين ، والايمان هو الايمان لدى هذا النفر المخلص ، الذي تسامى بعقيدته الاسلامية ، على شفاههم يرف ، وفي قلوبهم يكبر ، ولم يزد هذا الصمود قريشاً الا عنفاً وعتواً .

ويضطر الرسول ان يطلب من المؤمنين الهجرة ليخف عنهم هذا الكابوس ، لتكن الحبشة مقصدهم ، أية جهة يسلمون فيها من القتل والتعذيب ليسلكوه .

وبنو هاشم يخضعون مرغمين الى مقاطعة العرب ، ومحاصرتهم في شعب برهة من الزمان وماذا يعمل ابو طالب ومن حوله ، اذا هبّت العاصفة ، وطاش الحقد ، وتأجج اللهب .

ولم تملك قريش وطغمتها وسيلة ، ولا طريقاً خشناً إلا وعمدت إليه ضد هذه الدعوة ورغم هذا فهي تلملم النفوس الطيبة اليها ، وتجتث الاحلام العريضة التي عاشتها السادة الموتورون .

دعنا نسمع حوارا يدور بين ثلاثة ما دخل الايمان في قلوبهم ابداً ، هم أبو سفيان والاخنس بن شريق ، وابو جهل .

قال ابو سفيان والاخنس : يا أبا الحكم ما رأيك فيا سمعنا من محمد ؟ لماذا لم نكف عنه .

وجحظت عينا أبي جهل ، وكاد الغضب يمزق حديثه : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن ، وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فاطعمنا ، وحملوا فحملنا ، واعطوا فاعطينا ، حتى اذا تحاذينا على الركب ، كفرسي رهان ، قالوا منا نبي يأتيه وحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذا ؟ ، والله لا نؤمن به ابداً ، ولا نصدقه ، حتى تقطع هذه . واشار الى رقبته .

الحقيقة انها معركة بين الحق والباطل ، وليس من السهل ان يخمد اوار هذه المعركة ويطفى لهبها .

فالاقرار بمحمد (ص) معناه ان تتجرد تلك النفوس من اطارها التارخي القائم على الظلم والنهب ، والعبودية ، وكل سبل الثراء الغير المشروع ، وغير ذلك ، ومعناه اقامة حياة انسانية يتمثل فيها منهج الله للحياة الفضلى التي رسمها ، وارادها لعباده .

والفارق كبير جداً في كل موازين الحياة ، والاخلاق ، والتصورات ، والقيم . ومن هنا نتمكن ان نقدر مدى فعالية كل من الجانبين ، في الجهود الكبيرة ، والتضحيات الغالية التي تبذل

في كل طريق ، وفي سبيل الغاية يهون الجهد ، وتهون المشقة ، وتهون التضحية .

ومحمد (ص) صاحب رسالة ، وعقيدة ، ودعوته إنسانية فاضلة تختلف بكل المعايير والقيم عن دعوة قريش المبنية على النفع الذاتي والعبودية والاستغلال .

لهذا نرى ان المؤمنين بهذه الدعوة يهون عليهم أي موقف ، يتمثل فيه الفداء والجهاد على اساس الواقع الرفيع الذي يهدف اليه .

ومن هنا لم نستغرب اذا لاحظنا ان الصحابة الاوائل فضلوا التغرب ، والبعد والهجرة ، في سبيل عقيدتهم ، وايمانهم ، بعد أن كانوا في مواطنهم ، وعزهم ، ومنعة من قومهم .

وفاجأ القدر النبي (ص) بموت أبي طالب ، وذلك بعد أن جمع اولاده وآله وأوصاهم خيراً بمحمد ، وطلب النصرة له ، والذب عنه .

واذا مات أبو طالب ، فقد خسر بموته عضداً ، وحرزاً وكان في منعة من امره ، ومسنداً عند قومه . عزيز الجانب ، لا يقوى احد على اذيته ، ومقابلته . ويكفي انه (ص) يقول اكثر من مرة :

« والله ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه ، حتى مات أبو طالب » .

وهاجر الكثير من اصحابه الى الحبشة ، ولم يقف تيار الاذى والخطر نحو الباقين مما اضطره الى الهجرة الى المدينة .

واعلن الرسول (ص) الى اصحابه بالهجرة الى المدينة . . وكان من بين المهاجرين عبيدة بن الحارث بن المطلب ، ومعه أخويه الطفيل والحصين ، ومعهم أهل بيتهم . .

وكان عبيدة من المسلمين الاوائل ، له قدر ومنزلة عند النبي لحسن اسلامه وتفانيه ، وبطولته الشامخة في ساعة الشدة ضد أعداء الله .

واعلن النبي عن بدر ، واستعد المسلمون ، وكان من بينهم عبيدة واخواه والكل يعرف أن هؤلاء الاخوة أبطال شجعان ، لا يردهم الا الموت .

وتقابل الطرفان ، وخرج عتبة بن ربيعة واخوة شيبة ، وأبنه الوليد ، واخذوا يجولون في الميدان يطلبون المبارزة ، فخرج لهم بعض المسلمين ، فلم يقبلوا مبارزتهم لانهم لم يكونوا اكفاءً لهم ، فامر النبي (ص) ان يخرج لهم حمزة بن عبد المطلب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبيدة بن الحارث ؛ وانتسب لهم المبارزون ، فصاح عتبة اكفاء والله ، لنا معهم نزال .

كان عبيدة أسن المسلمين في بدر ، وكانت له مواقف مشرفة في

ذلك اليوم ، وكان عبيدة قد بارز عتبة ، وتصاولا مدة وتمكن ربيعة من قطع رجله ، وجاء الى النبي (ص) ـ بعد ان تمكن بمعاونة علي من قتل ربيعة ـ يحمل رجله ، ثم ما لبث ان مات بالصفراء . وعمره ثلاث وستون سنة وكان رجلا . مربوعاً حسن الوجه . .

وينقل الراوون : ان النبي (ص) نزل مرة باصحابه بالتارين ، فقال له اصحابه : انا نجد ريح المسك ؟

قال (ص) : وما يمنعكم ، وها هنا قبر أبي معاوية عبيدة بن الحارث . . وهكذا انتهت حياة هذا الصحابي البطل الذي كان سيف صدق وساعد وفاء لنبيه ، من ساعة ايمانه الى اخر لحظة من قتله في بدر ، فرحمه الله .

حنظلة بن أبي عامر

وكان الشيخ ابو معاذ متجهما في ليلته الجديدة ، وقد عام في تفكير طويل ، ولعله كان يختار شخصية لحديث هذه الليلة وقد مرّت عليه احداث تلكم السنين ، وما رافق بداية الدعوة من الآلام والاشجان عاناه المسلمون من المعارضين والاعداء بحيث يمكن ان تكون اخطر مرحلة تمر بها مسيرة الاسلام في بدايتها الفتية .

ثم تحدث ، والكل في لهفة لحديثه ، وقال : رحم الله حنظلة بن أبي عامر « غسيل الملائكة » وليكون حديثنا عنه في هذه الامسية .

فقد انتشر الاسلام في المدينة وقويت شوكة الدعوة ، ولم يبق من أوس المدينة وخزرجها الا نفر قليل لم يعمر الايمان قلوبهم . وكلما مرت الايام على رسول الله كانت المدينة ، تضم اضلاعها على دعوته ودائرة المسلمين تتوسع ، وتتقوى كلمتهم ،

وتزداد صلابتهم ، حتى اصبحت قوة المسلمين تهدد قريشاً ، وغزو مكة .

وفي ذات ليلة شاحبة الضوء ، ارهقت ارجاء المدينة وهزت بعواصفها القاسية بيوتها الطينية ، وقد التفت العوائل حول مواقدها الشتائية ، لتقي نفسها صخب تلك الليلة الهائجة . عدا بيت واحد فيها كان لا يعير لغضب الطبيعة اي اهتمام ، يكفيه ما يلفه ورجاله من غليان الحقد ، ولهب الجزع .

انه « بيت الراهب » ، وصاحبه ابو عامر ، عمرو بن صيفي بن زيد من كبار الاوس ، والراهب لقبه الذي عرف به في الجاهلية .

وكان هذا الرجل من اولئك الاشخاص الذين هدم الاسلام آمالهم العريضة ، ومزق احلامهم الواسعة ، فقد كان يرجو ان يكون يوما زعيما على قومه ، وكبيرا على رهطه ، لكن الاسلام اطل ، ولوح للطبقية بالانهيار . وكان الراهب هذا كثيرا ما يجتمع الى زميل له في هذه النكبة هو عبد الله بن أبي بن سلول - سيد الخزرج ، وكبيرها - ويقول الراوي : لولا بعثة الرسول محمد (ص) لتوج ابن ابي بالملك على عامة الخزرج .

كان الرجلان ، ومن حولهما عدد من صحابتهما يضمهم بيت الراهب يفكرون كيف يصدون تيار الدعوة الفتية ، ويقطعوا مسيرة

محمد (ص) . انها آخذة بالاتساع ، ولكن دون جدوى ، فقد بدت اضواء الفجر تكتسح ظلام الليل ، وتمزق وحشته . وهما لم يجمعا رأيهما على امر ينهي قلقهما ، ويبدد ما يخامرها من حزن .

ويجتمع الرجلان على عادتهما في ظل ليلة ساطعة قد طغت باخبار الدعوة واتساع آفاقها . ويدور حوار بينهما ، ونبرات الاسى تنم من خلال الكلمات .

يا ابا عبد الله وكيف قر رأيك ؟

وينتفض ابن أبي في وجه صاحبه الاوسي ، وكأنه لسع بلهب نار حارقة .

لا اريد ان تناديني بابي عبد الله . قل يا ابا الحباب لا تذكرني به ، لقد اجهدني بولائه لمحمد ، ومزق آمالي فبه لقد سحره محمد فانساب اليه ، وانقطع عني ، ولم يعد يحفل بي انه مسحور بهذه الدعوة . آه . . آه ليتني مت قبل هذا ولم أر هذا اليوم الحاشد بذكر محمد ودعوته ، حتى أثر على اولادنا وصغارنا وعبيدنا . أي سحر هذا . و . و . وجفت الكلمات على فمه ، وغارت عيناه من الجزع . ثم سكت . .

لم يكن ابن أبي وحيداً في هذه الدوامة فابو عامر الراهب مصاب بمثل مصيبته في حسده ، وجزعه ، وتمزق آماله ، وندياح ولده في موكب الدعوة .

وكيفما كان فالرجلان تلفهما احزان مشتركة ، ولا بد ان يضعا حدا لما هم فيه من حزن وعذاب نفسي .

وتدور فيهما اصداء وحشة فيها من سود الايام ، ومر الليالي ما يعكر عليهما صفو الحياة .

وماذا يعملان ؟ ولا بد من العمل . فالجو الذي يلفهما لا يطاق وقال الراهب : ولم يكن لي بد من الرحيل عن المدينة والالتحاق بقريش . فلعلي أنسى محمد ودعوته . ومالي في البقاء هنا مطمع بعد ان عافني ولدي حنظلة ، وانخرط فيما انخرط فيه المسحورون بسحر محمد ، وغص بحديثه . وجف البريق في وجه ابن ابي فقد تذكر ولده .

وكلكل على الرجلين وجوم ، كل يفكر في مصيره المظلم ، ومضى عليهما وقت يكاد يقطع الليل بطوله ، وهم في صمت عميق . واخذت دكنة الظلام تنقشع رويدا رويدا . انها بداية الفجر ، ومعها اخذ ابن أبي يلملم نفسه ليغادر صومعة الراهب ، ووقف ابو عامر يودع صاحبه لكنه لم يتكلم ، فقد خانه التعبير . واراد ان يذكر زميله بما كانت تتحدث به قريش بشأن هذه الدعوة ، لقد كان يقول زعيمهم وهو يخطب فيهم :

يا معشر قريش أجمعوا أمركم على رأي ، فقد جاءكم حفيد عبد المطلب بأمر عظيم .

يا معشر قريش لا ينفعكم التواني . انه ـ واللات والعـزى ـ الخطب الجسيم ، وان لم نكن نحن الغالبين لهوى بنا الزمن الى شر ما نخافه . هبوا عليه من كل جانب واقتلوه ، واقتلوا اصحابه معه لتستريحوا من شر هذا الامر .

وانتفض زعماء قريش ، والغضب يرتسم على وجوههم . انه الخطر المقبل . ولم تمر الايام حتى تحقـق كل ما قالـه عمـرو بن هشام ، فقد اصبح محمد خطراً كبيراً عليهم ، وانسابـت دعوتـه بينهم كالبركان .

كل هذا مرّ سريعـاً في ذهـن الراهــب ، وهـو يودع صاحبـه المجهد ، ويصبح الصباح ، وتتحدث الناس عن شخصين :

عبد الله بن أبي يقصد النبي ليسلم ، ويتهامس المسلمون عن دوافع إسلام زعيم المنافقين ، وهل هو صادق في أمره ؟

وابو عامر ، عمرة بن صيفي ، فقد شد الرحال الى مكة تاركا المدينة واهلها ليلتحق بقريش ، حيث لا يرى محمدا ودعوته تشق عنان السماء ، ويسمر السامرون بحديث هذين الشخصين .

وفي رحاب العقيدة تجمع بين شخصين وشائج الايمان وتوثـق بينهما رابطة الدعوة المحمدية ، هما : حنظلة بن أبي عامر ، وعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول .

كانت الصلة قوية بين الصحابيين ، فقد وحدهما ايمان الدعوة كما وحد الكفر قلبي ابويهما .

غريب أمر هذه الصلة بين الولدين والابوين ، فهي تتوثق مع مرور الزمان رغم ان الراهب في مكة وابن سلول في المدينة ، فانهما على اتصال دائم في رسم المخططات للوقيعة برسول الله وعودة الجاهلية الحاقدة الى ربوعها الاولى .

ومن جانب آخر تقرب الدعوة المحمدية بين الولدين المؤمنين وهما يقابلان غمز الغامزين ، وهمس المتهامسين عن موقف ابيهما بوخز وعذاب .

ورسول الله (ص) ـ وهو نبي الرحمة ـ يكرر اكثر من مرة امام اصحابه قوله : « لا يؤخذ الجار بجرم الجار ، ولا الولد بجريرة والده » .

انه يحاول عليه الصلاة والسلام ان يفهم الجميع ان الصحابيين الصالحين حنظلة بن ابي عامر ، وعبد الله بن عبد الله بن أبي لا يتحملان مسؤولية ابيهما ، ومواقفهما العدائية من الدعوة مهما كانت الامور والاحوال .

ان كبير الاوسين ، وزعيم الخزرجين ، قد انهارت آمالهما على عتبة الدعوة ، وذهنهما لم يستوعب الدعوة وأبعادها ، فأي ذنب لولديهما ، وقد يخرج الطيب من الخبيث . .

ويطرق المدينة حديث جديد ، والايام تمر سراعاً يتهامس فيه القوم :

لقد مرّ عام على معركة بدر ، والعرب لم تتنسم بعد ريح السلم ، وزعيم الجاهلين يعلنها حرباً شعواء مرة ثانية ، يحاول تغطية فشله بالامس لا اصلح الله ايامه .

كفى ، كفى لا تأتي بذكر الحرب يا رجل فاني لا اطيق ذكرها ولا بد ان يعقب الحرب دمار ، وتناهت الى اسماعهم اصوات وجلبة ، ما هذه الاصداء الصاعدة تقترب منا اصغ اليها لعلنا نقف منها على الخبر .

ما لنا ولهذه الاصوات التي تتعالى ، دعنا نسلك هذا الطريق فلا ينتهي بنا اليها ، ونستريح منها .

واخذت الاصوات تقترب ، والاشباح تظهر ، انها جموع حاشدة تخب في سيرها ، وهي محاذية « أحد » .

لم ينقطع بعد حديث الناس عن معركة (بدر) ، ولم يُمثل جرحاها للشفاء من أوار تلك الحرب الضروس ، ولم يمر على ذلك عهد طويل ، حتى بدا للقوم انهم على ابواب معركة جديدة فابو سفيان لن يستقر له بال ، ولن يهدأ له خاطر ، ما دام قد مني بانكسار فظيع في (بدر) وما دام الاسلام آخذاً بالازدهار في ظل محمّد (ص .

واعلن رسول الله صباح يوم عاطر بان المشركين يستعدون للقتال . وانهم يحاولون مفاجأة المسلمين بالهجوم ، وسرت اقوال النبي مسرى النور في ارجاء القوم ، فتجمعوا حوله ليقفوا على جلية موقفه .

يا رسول الله ما رأيك في الموقف ؟ .

الرأي رأيكم ، فماذا ترون ؟ .

الحرب يا رسول الله .

لكم ما تريدون ، بشرط ان لا نبادئهم بذلك .

كما تأمر .

وان لا نجهز على جريح ، وان لا نمنع عنهم الماء ، وان لا نطمع بالسلب والنهب .

لك يا رسول الله ذلك .

وان يكون دافعنا للقتال الاخلاص لوجه الله ، والدفاع عن العقيدة .

نرجو ان نوفق لذلك .

اذن فدبروا امركم ، واستعدوا للزحف ، فعند انبلاج الفجر يحمد القوم السرى .

وتفرق المسلمون لجمع شتاتهم ، حتى يحل موعد التجمع مع انبلاج النور في سماء المدينة ، وانتشرت حلقات في فناء المسجد

تتدابر امر الحرب . وتضع لها الخطط ، وتستعرض اصحاب الرايات ، وسرات القوم .

والتفت مصعب بن عمير الى اخوانه مستفسراً ، وعلائم الدهشة قد ألمت بقسماته .

ما بال (حنظلة بن ابي عامر) لم يحضر الينا ، ألم يبلغه امر محمد .

وكبر على اخوانه ان يفتقدوا هذا البطل في احرج الساعات ، فلا بد ان ألمت به نازلة منعته من التلبية .

وانسل صديقه الحميم عبد الله بن عبد الله من وسط الجالسين ، وغاب عن العيون ساعة ، ثم عاد وبسمة هادئة لا تفارق شفتيه .

ماذا وراءك يا عبد الله وتكاد البسمة تفشي سرك .

لقد ساءني ان ارى مكان حنظلة خاليا فهرعت استقصي خبره : حتى اذا ما علمت جلية الامر عدت اليكم لأخبركم بالحقيقة .

وقفزت الفرحة على الوجوه . ومال الناظرون اليه يستجلون واقع الامر ، وضحك عبد الله قبل ان ينطق بالنبأ ، مما زاد المستمعين شوقاً ولهفةً .

ان هذه الليلة زفاف حنظلة وهو خارج المدينة في مضارب زوجته لا يعلم من أمر الزحف شيئا .

وماجت بسمة على شفاه الجالسين ، وباركوا لعريسهم فرحته ، ودعوا له بالسعادة في ليلته الحالمة .

وزحف النبأ الى رسول الله فدعا الله ان يكون موفقاً في عرسه .

وينهض احد المسلمين وعلى محياه شيء من الصرامة . فيلتفت مصعب بن عمير له ماذا بك ؟

أريد ان اذهب لحنظلة فاخبره بجلية الامر ، ليلحق بنا . اننا بحاجة اليه ، والوقت ليس وقت زواج .

وضاق مصعب بهذا الرجل ، ومنعه المسلمون من تحقيق مطلبه ، والتفت اليه احدهم قائلا :

ولماذا تريد ان تحرمه سعادة زواجه في هذه الليلة ، دعه يرقد بنعيمه ، ويتمتع بنداء الحبيب العذب ، فالرجل معذور .

ولملم الرجل اقتراحه على شيء من الانكسار ، وعاد الى حلقته في فناء المسجد ينتظر الفجر ، وهو يحمل حزمة الضوء لينثرها على بيادر الافق الوسنان ، فيزحف على نوره جيش المسلمين نحو (احد) .

واسفر الصبح عن حشود تقف على اهبة الاستعداد خارج المدينة تودع اهلها وذويها ، والرسول الاعظم وخاصته يتنقلون في القوم ، يحثون هذا ، ويشرحون موقف ذاك ، وهم جمع لم يتجاوز عددهم (السبعمائة) مقاتل او اكثر بقليل ، وما كاد النهار يمر منه ثلثه حتى زحف المسلمون نحو ساحة الحرب يقابلون العدو بعدده الكبير .

وحطت الرحال ، وضربت الاقبية ، ووقف الزحف في الموضع المحدد له ، وكانت الشمس تحاول ان تطفىء جذوتها على زرقة السماء . ولم تمر غير سواد هذه الليلة ، حتى يباشر المسلمون القتال مع المشركين .

وفي المدينة لم يبق احد من مخلصي محمد الا والتحق به في زحفه المقدس .

وعاد حنظلة بن ابي عامر مع عروسه الى بيته بعد ان قضى ليلته السابقة في مضارب قومها ، ودخلا المدينة ، فالفياها خالية من الرجال الا من العجزة والمقعدين .

وطافت على قسمات حنظلة علائم الدهشة والاستغراب ، وسرى اليه النبأ من بعض الشيوخ والعاجزين . وفيما هو سائر يحاول ان يصل بيته اذا ببعض النسوة يلمحنه ، وهودج عروسه يتهادى خلفه فضحكن ، وعز عليهن ان لا يشارك حنظلة في

المعركة ، وتخاطبن فيما بينهن .

أرأيت حنظلة وقد شغلته عروسه عن الجهاد مع محمد .

لا تكوني قاسية مع العروس ، قد لا يعلم بذلك .

وترامى هذا الحديث الى اسماع حنظلة ، وشق عليه هذا التوبيخ .

وما ان ضمه بيته حتى خفت اليه امه تستقبله وتحتضن عروسها ، والتفت اليه النسوة يباركنه من كل جانب . وغاص حنظلة في فرحة البيت التي لم تطل ، بل مرّ على خاطره ذكرى محمد وزحفه فخف اليه بقلبه .

ونادى امه فاذا ما وقفت امامه ، اخذ عروسه من يدها وسلمها اليها .

يا اماه هذه وديعتي لديك ، فاحسني مثواها ، وانا ذاهب الى حيث زحف محمد والمسلمون اشارك في هذا الواجب ، وعسى ان اعود سالما لاحيا معكم حياة الهناء .

وجمدت البسمة على شفاه الامرأتين . وغام البريق من ذلك الرونق البهيج المستكن في وجه هذه العروس المثكولة .

ثم التفتت الام وهي تعوذ ولدها برب محمد الا ان يعيده عليها لينعم بعروسه ، وغضت الزوجة طرفها لم تحاول ان ترمق

زوجها ، وهو يمتطي صهوة جواده يطوى الارض نحو احد .

وعلى فتات من اشعة الشمس الذابلة يبصر المسلمون فارسا مقبلا يحث جواده يقصد معسكرهم . فشخصت الابصار اليه ، ويصل الخبر الى رسول الله فاذا به يقول لهم : استقبلوا اخاكم حنظلة فهو مقبل عليكم .

وخف المسلمون اليه مرحبين ومهنئين ، ويرد عليهم ببسمة ملؤها الايمان ، واذا ما اقترب من الرسول القى بنفسه عليه وهو يتمتم :

يا رسول الله اعذرني من التأخير ، ما عرفت الخبر الا الآن فهرعت اليك لأكون الى جنبك . فرد عليه رسول الله : ما اردنا ان نقلق عليك زواجك وسعادتك .

وغض حنظلة حياء ، وضحك المسلمون .

*

وعلى مبسم الافق طبع الصبح قبلته الارجوانية ، وعلى نشوتها افاق المسلمون من شبه غفوة ، واستعدوا للزحف . . انها الساعة التي تقترب من تلك المرحلة الحاسمة في تأريخ الاسلام وقد امر الرسول الاعظم القواد ، وحملة الرايات . وتأهبوا للقتال .

ودارت رحى الحرب حامية الوطيس ، شديدة المراس ، لم

تنكشف غبرة المعركة الا والمسلمون بين كر وفر ، وعلي يجول في صفوف المحاربين يذب عن رسول الله .

وجن الليل ، وداهم ارجاء « احد » الظلام ، ايمان المعركة تدفع بالمسلمين الى انتعاش الامل ، ولكن المعركة توقفت .

وامر النبي المسلمين بان يتفرقوا لجمع قتلاهم ، ويمر زمان قصير حتى عادوا اليه :

يا رسول الله انهم سبعون : اربعة من الانصار ، والباقون من المهاجرين ، ولم نعثر على حنظلة بن ابي عامر .

ووقف الرسول يرمي الفضاء النائي ببصره ، وبعد برهة وجيزة التفت الى اصحابه وهو يقول : من ذلك الرجل الذي تغسله الملائكة في سفح الجبل .

وخف الى المكان من المسلمين ليعرفوا من هو غسيل الملائكة .

وانطبعت الدهشة على الوجوه عندما لمحوا حنظلة ابن ابي عامر ، والماء ينضح عليه .

وعادوا الى الرسول يحملون فقيد المسلمين . وقد عز على نبي الرحمة ان يبصر عريسا لم يمر على زفافه سوى ليلة واحدة ، وقد خمدت اضوائه في ساحة المعركة . وردد ـ ودمعة وطفاء تطفر من

عينـه الحانية ـ رحـم الله حنظلة ، فقـد فضـل الجهـاد على متعـة الزواج .

«من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهـم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » .

ومسحت جميلة حبات لؤلؤية انسابت على اهدابها ووجناتها ، وهي ترمـق جيش المسلمـين يعـود الى المدينـة وحنظلـة لم يكن معهم .

واجتمعـت حولهـا نسـاء الاصحـاب يهدئـن من لوعتهـا ، ويواسينها بمصابها ، وفي دوامة الاعصار التفتت اليهم لتروي لهم ما مر عليها في منامها :

في الليلة التي سافر بها حنظلة ليلتحق بركاب الرسول ، رأيت في المنام فرجة في السماء دخل فيها حنظلة مشرق الوجه ، ثم عادت السماء الى حالتها الاولى .

ثم استطردت قائلة : واستيقظت مضطربة وجلـة ، تزاحمنـي الـذكريات فتمطرنـي بحلوهـا ومرهـا ، والليل البهيم يزيد من وحشتي وداخلني منه رعب وهلع .

ولم تغمض ليلتها ـ بعد ذلك ـ لي جفن ، فبقيت اشد عيني في النجوم ، واستاف عبير الذكريات ، واطرب لصدى الامنيات ،

وهي ترمي بكلكلها على سفوح جبل احد .

واذا ما اطل الصباح نعي الي حنظلة شهيد العقيدة وفداء الدعوة .

واختنقت بعبرتها ، فدفنت وجهها المضمخ بدموعها بين يديها ، وغابت في شبه اغفائة ترائى لها عريسها مع لّمة من شهداء : بدر وأحد ، في ابراجهم العاجية ، ووجوههم مشرقة بالايمان . وهو يرفل في ثياب عرسه يقود النصر للدعوة المسلمة الصاعدة في مسيرتها .

جَابر بن عبد الله الأنصاري

واجتمع الشمل ، واكتظ المجس ، والعيون مشدودة الى الطريق الامامي لقد تعدى وقت وصول الشيخ ابو معاذ ، والجميع في لهفة اليه ، انهم بانتظاره ، وبعد فترة وصل الشيخ ، وهو يتوكأ على عصاه ، وعلت وجهه مسحة الـم ، لكن بسمته الهادئة لم تفارق ثغره . وبعد استراحة قصيرة بدأ في الحديث ، قال :

كان جابر بن عبد الله الانصاري ، من وجوه الانصار ، شهد العقبة الثانية ، مع أبيه ، وهو صغير ، فبايع النبي ، كما بايع قومه ممن قصد مكة لهذا الغرض .

فقد كان المسلمون ينسلون الى رسول الله (ص) انسلالا من اقوامهم لمبايعته واعلان اسلامهم . ووصلوا في العقبة الثانية الى السبعين شخصا ، كانوا في منى ،وبايعوا رسول الله . وكان جابر واحداً منهم ، وقد علته نظارة الفتوة . صحب أبيه في هذه

المهمة ، وفي اعماقه شعلة الايمان تتوقد حماساً .

واستمر جابر مع الدعوة صعودا وكفاحا ، وان كان لم يسهم في بدر وأحد بقتال لانه لم يبلغ مبلغ الرجال بعد ، ولكنه ما حرم المشاركة فيهما ، فقد كلف بنقل الماء للمحاربين .

وكلما صعدت الايام بجابر كان يزداد صلابة في ايمانه ، ووضوحا في عقيدته ورسول الله (ص) يوجه اصحابه الى طريق الهدى ، فتزداد افكار جابر وامثاله تهيئة لاستيعاب ابعاد الدعوة ، وقربا من صاحب الرسالة .

واذا ما امتد الاسلام ، وتوطد امره ، وأوغل رسول الله (ص) في محاربة اعداء الدعوة ، وشهر بوجه المعارضة السيف ، جاء دور جابر واضرابه ، وهم فتيان الاسلام وسواعده السمر ليكونوا للدعوة خير جند .

واستمرت الغزوة تلو الغزوة ، وانهالت الانتصارات، مرة بعد اخرى ، ورفت راية الاسلام ، ولمعت سيوف المسلمين ، وهلهلت العقيدة لذلك قوى الكفر، ورغم الفداء المتواصل ، والتضحيات الجسام ، كان المسلمون يتهافتون على الحرب في سبيل العقيدة .

ولماذا لا يكون جابر ـ وهو الفتى اليافع ـ جنديا باسلا في مواقف

الشرف ما دام الله سبحانه فضل المجاهدين على القاعدين . . وجابر مسلم فذ آمن بقلبه ولسانه ، وهيأه والده لمثل هذه المواقف الحاسمة .

وشق الاسلام طريقه في مسارب الزمن ، واقتحم الميادين ، وخاض غمار الاهوال ، وزرع الهلع في عيون الحاقدين ، وروع قلوب المشركين . . وكانت سنة ست ، واعلن فيها رسول الله عزمه على اداء العمرة . . فطغاة مكة قد أجهدتهم الحرب ، والاسلام بدا شامخا ، قد هدّ كل مراكز القوى ، ولا بد له من الوقوف في هذا الموقف الحاسم . . . وقد مضى امس بكل طيوفه . . ويأبى الله الا ان يتم نوره ، ولو كره المشركون . .

أمر رسول الله (ص) اصحابه بان يستعدوا للمغادرة الى مكة ، وهو لا يريد قتالا ، انما يعتزم الزيارة والعمرة . . وسافر الركب من المهاجرين والانصار ، ومن تبع رسول الله من العرب الى بيت الله ، وساق النبي امامه الهدي ، ليعلم قريش انه يقصد اداء العمرة والحج ، ولا يروم قتالا وحربا . .

ودب المساء على ارجاء مكة ، وقد تحلقت قريش حول الكعبة ، وترامى اليها بناء زحف محمد باصحابه الى مكة . . فطاشت عقولهم . لم يدر في اذهانهم ان القوة تبلغ بيتيم عبد المطلب الى درجة الغزو ، وهم في عقر دورهم . .

غام هذا ، وغضب ذاك ، وذهب البعض يعض على لسانه ، وقال قائلهم : وهو يحرق الارم من الخوف والغضب . . يا قريش هذا هو الموت ، محمد يغزونا في ديارنا . . . وانتفض ابو سفيان صائحاً : لا كان ذلك ابداً . لنستعد للموت ونخوض غمار الحرب .

وأخذت الاستعدادات على قدم وساق ، كل يلتفت لصاحبه ، وهو يكاد يتفصّد غيظاً : محمد خرج لكم باصحابه ليزيحكم من دياركم . . وماجت مكة تستعد وتلبس لامة حربها . انها جولة لا بد منها ، فاما الحياة واما الموت . . اما الشرف واما العار . . .

وبلغ النبي (ص) ، وهو في طريقه الى مكة أن قريشاً وقد سمعت بمقدمه فتجمعت وخرجت اليه بنسائها واطفالها ، ولبست ابطالها جلود النمور ، ولامة الحرب ، وقد عاهدت الله ان لا يدخل عليها محمد ابداً ، وقد ارسلت خالد بن الوليد بسرية كاملة لحربه وصده عن الدخول الى مكة . . وهذه الكتيبة على مقربة منه بانتظاره مهما كلفها الامر فانها مصممة على تنفيذ قولها .

وسمع رسول الله (ص) بالخبر ، وقال :

« يا ويح قريش ، لقد أكلهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فان هم أصابوني كان الذي ارادوا ، وان أظهرني الله عليهم دخلوا في الاسلام وافرين وان لم يفعلوا قاتلوا

وبهم قوة . . فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهد على الـذي بعثني الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفـة (صفحـة العنق) » .

وتقاربت جيوش المسلمين من كتيبة قريش ، وهـي مدججـة بعدتها وعددها ، وكان التصميم باد على عيونهم انهم نذر حرب لن يسمحوا لمحمد (ص) واصحابه ان يدخل مكة ان كرهاً وان طوعاً ، ورغم ان رسول الله أكد لهم بأنه لم يأت لقتال وحرب ، انما هدفه الـزيارة والعمـرة ، ولـكن ذلك لـم ينفـع مع عنادهـم وغرورهم مما اضطر الى استعمال التهديد فقال لوفد قريش الذين جاءوا في محاولة المتعرف على رأيه النهائي : انه قصد البيت العتيق للزيارة والطواف ، ولم يبغ حرباً أو قتالاً ، فمن صده كان بينهما السيف . . .

وهكذا صمم النبي (ص) ورغـم هذا صممـت قريش على موقفها المتعنت فهي لا ترغب ان يدخل محمد بن عبد الله ، يتيم عبد المطلب ، شريد الامس ، الى مكة عنوة ، وهي لا ترضى . .

وطال الحوار بين الطرفين ، واستمرت الرسل ، وأكد النبـي بعزمه في تحقيق هذا الامر ، وكادت قريش تفتك بمن ارسله لهم . فقريش ليس لها ذمة ، ولا عهد ، ولا تلتزم بقيم ، ولهذا عندما لمس النبي (ص) منهم عدم الاستجابة صمم على مناجزتهـم ،

وكان عليه ان يأخذ العهد من اصحابه على الاستمرار وعدم التراجع . فجمعهم ، واخبرهم بموقف قريش وتعنتهم ، وانه مصمم على مناجزتهم ، ومن شاء الصمود معه فليسابق على الصبر والصمود . . وكانت « بيعة الرضوان » ؛ وقد تم عقد البيعة تحت الشجرة بين مكة وبينها مرحلة .

وكان جابر بن عبد الله احد حضار هذه البيعة ، وهو يحدث ويقول : ان رسول الله (ص) بايعنا على ان لا نفر . . ثم قال : والله لكأني أنظر اليه لاصقاً بابط ناقته ، قد استتر بها من الناس ، وهم يبايعون على الصبر ، ولم يتخلف الا واحد من بني سلمة .

وبلغ اسماع قريش خبر هذه البيعة ، وحسبت لها الف حساب ، ولمست العزم والتصميم ، وهي لا تريد ان تزج نفسها بحرب جديدة فقد اكلتها الحروب ، واجهدها القتال وقر رأيها ان ترسل له من يفاوضه على الهدنة . .

ورسول الله (ص) لم يكن محبا لسفك الدماء ، فهو لا يريد للناس الفناء ، ولا لدينه ان يشرق بحد السيف ، انه نبي الرحمة والخير والانسانية والفضيلة ، والسلم والكرامة رسالته تحرير الامة من العبودية ، وانتشال البشرية من الضلالة .

كان عليه الصلاة والسلام يضطر للحرب والقتل عندما لم ير بدأ من هذا الطريق وكان عنف قريش لا يرده الا القتال ، لهذا

كانت قريش تلجأه الى هذا الطريق .

ارسلت قريش محمد بن سهيل بن عمرو الى رسول الله (ص) يكلمه بشأن الهدنة ودخل عليه الرجل ، وهو واثق بان قلب محمد اكبر من كل قلب ، فهو لعلى خلق عظيم . .

وطلب ممثل قريش من النبي ان يرجع عن مكة في هذا العام ، ويعود اليها في عامه المقبل ، كي لا يقول العرب عن قريش ان محمدا دخل مكة عنوة . .

ومحمد لا يريد شراً للناس ، حتى ولو كانوا كفارا . نبي الرحمة ، ورسول الخير ، وراية السلام . واستجاب لطلب قريش . واخبر اصحابه بالامر ، وثار عمر بن الخطاب وجاء لابي بكر غاضبا ، وقال له : لنذهب الى رسول الله ونعاتبه . . وانكر عليه ابو بكر عزمه ، لكنه ذهب وقال ما اراد : يا رسول الله ، ألست رسول الله ؟ قال : بلى

قال عمر : اولسنا بالمسلمين ؟ ، قال : بلى ، قال : اوليسوا بالمشركين ؟ ، قال : بلى قال عمر : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ ، قال : انا عبد الله ، ورسوله ، ولن اخالف أمره ، ولن يضيعني ! . . فسكت عمر . .

واجتمع اصحاب الرسول في المجلس ، لقد اخبروا بان عهد الصلح بين النبي وقريش سوف يكتب . وغص المجلس ،

واستدعى رسول الله (ص) علي بن أبي طالب ورف على المجلس سكون غريب ، وتعالت الاعناق ، وارهفت الأذان .

وقال النبي لعلي : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال ممثل قريش : لا اعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم .

فقال النبي : اكتب يا علي باسمك اللهم . . ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو .

فقال ممثل قريش : لو شهدت أنك رسول الله لم اقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم ابيك .

قال رسول الله لعلي : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . . « اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من اتى محمداً من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً من تبع محمداً لم يردوه عليه ، وان بيننا عيبة مكفوفة[1] ، ولا اسلال ، ولا اغلال[2] وانه من احب ان يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن احب ان يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه » .

---

١ ـ اي صدور منطوية على ما فيها ، لا تبدي علاوة .

٢ ـ اي لا سرقة ولا خيانة .

وختمت معاهدة الصلح ، وشهد فيها عدد من الطرفين ، وابرمت الاتفاقية . . وبموجبها تعهدت قريش للنبي ان يدخل مكة في عامه المقبل ، وسيوفهم في اغمادها ، ولم يحملوا من السلاح ، الا سلاح المسافر ، ونحر النبي ، وحلق ، ونحر اصحابه وحلقوا . وعادوا الى المدينة . . وفي الطريق نزلت السورة الكريمة ، سورة الفتح :

« انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر الله ما تقدم من ذنبك ، وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما » . .

« ان الذين يبايعونك ، انما يبايعون الله ، يدُ الله فوق ايديهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجراً عظيماً » .

واخرست الالسن التي كانت توجه اللوم على النبي ، بانه ضعف ، وصالح المشركين ، ورجع من غزوته ، ولم يشهر سيفا ، ولم يطعن برمح . . تقول الرواية ان ابن الخطاب قال : لقد صالح رسول الله (ص) أهل مكة على صلح ، واعطاهم شيئا لو أن نبي الله أمر عليّ اميرا فصنع الذي صنع نبي الله ما سمعت له ، ولا اطعت . . .

وهذه الكلمة القاسية من شخصية اسلامية لها مركزها في صفوف قادة المسلمين تعكس لنا ضوءاً قاتماً عن الصورة التي

عاشها الكثير من المسلمين بالنسبة لمعاهدة الصلح ، وقد غرب عن اذهان هؤلاء ان محمداً لم يكن اداة دمار وحرب وما هو إلا وحي يوحى ، ولا ينطق عن الهوى ، فأي اعتـراض بعـد هذا من أي كان ، وبأي اسلوب كان . .

ويعود الركب الى المدينة ، واصيل ذلك اليوم لم تغرب عنـه شمسه ، وفي نفوس البعض شيء لم يحتمل ، فقد باتت مكة على مقربة من ايديهم ، وما هي الا جولة حتى يدخل المسلمون البلد الذي هربوا منه قبل سنين فاتحين ظافـرين . ولـكن امـر النبـي (ص) ولا راد لامره . . .

ووصل الرسول يتقدم موكبه الخالد وقد مسك بزمام ناقته جابر بن عبد الله واستقبلته النساء بالزغاريد ، والرجال بالتهليل . . لقد عاد القائد ولم يسفك محجنة دم في غزوته ، والفتح امامـه في عامه المقبل .

وطيلة عام كانت النفوس مطمئنة بما رسمه الرسول اذ [illegible] . وان اليوم آتٍ لا محالة . . ومرت ايام العـام السابـع من الهجرة سراعاً ، وجمعت في طياتها ذكرى معركة خيبر وانتشرت في خلالها اصداء الظفر الباهر الذي منّ الله به على [illegible]

وبزغ هلال شهر ذي القعـدة من ذلك العام ، وقرر النبي

(ص) اصحابه بعمرة القضاء[1] . . لقد حان الاجل الذي عقده مع قريش في معاهدة صلح الحديبية . وعلى جميع الذين كانوا مع الرسول في سفرته للعمرة ، ان يستعدوا الآن للسفر معتمرا ، مكان عمرته التي صدته قريش عنها . .

واتجه الموكب الى مكة يتقدمهم رسول الله ، وجابر بن عبد الله يقول : خرج مع النبي كل من صد عن اداء العمرة في العام الماضي . وبلغ نبأ المسلمين اسماع قريش ، والركب بعد لم يتجاوز نصف الطريق .

وعقد الاجتماع بين اقطاب قريش ، هل يتركوا مكة لمحمد واصحابه ، أو يقاوموا ؟ ان نبي المسلمين مصمم على تنفيذ بنود المعاهدة ، ودون التقاعس عن تنفيذها الحرب والقتال .

وقال قائلهم : ان محمداً واصحابه في عسرة وجهد وشدة ، وهم مصممون على دخول مكة ، وخير لقريش ان تعطي من نفسها ما التزمت به ، ويكفينا القتال . ولملم ابو سفيان آماله العريضة ، وقطب ، ولكن فضل السكوت ، عرف ان الضعف دب في قومه ، ولا فائدة من الاصرار .

وقال له احدهم . اوتسكت يا ابا معاوية ، فهل قررت شيئا ؟

---

١ ـ وقد [illegible] لان [illegible] من قريش فدخل مكة بعد ان منعوه منه

ويرد وفي صدره اكثر من آهة ، وعلى عيونه فيض من دموع ، لا يملك الجواب. انه كبير عليه ان يدخل محمد واصحابه مكة ويطوف ببيتها ، ومعنى هذا ان قريشا ضعفت امام فتى الهاشميين ، وود ان تكون الحروب قد اكلته واراحته من رؤية هذا اليوم .

ويتعالى نداء آخر من جانب القوم ، قل يا زعيم الامويين ، فما هو رأيك بالامر ؟ . . . ويضطر للاجابة ، ويرد وتكاد الحروف تضيع وسط الغصة والجزع لا بد من تنفيذ المعاهدة ، لنترك مكة لمحمد ثلاثة ايام ونخرج . .

واصطف كثير من قريش عند دار الندوة لينظروا الى موكب المسلمين . ودخل رسول الله ، وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته وخلفه المهاجرون والانصار ، وطافوا في البيت ، واكملوا مناسكهم وقضوا فيها ثلاثة ايام .

واشرق اليوم الرابع ، وماجت قريش ، لقد انتهى موعد النبي ، ولم يغادر مكة ، واتاه وفد من قريش . . . يا محمد قد انقضى اجلك ، فاخرج عنا . . . وقرر النبي المغادرة لا يريد ان يسفك فيها دما . يكفيه في هذه المرة اخضاع قريش . وفعلا خضعت . . واعلن انه خارج عنها ، يتركها لا خوفا ولا وجلا ، ولكن للكلمة عنده شرف .

وترك مكة عائداً الى المدينة ، لقد حقق الله مراده ، فقد انكشفت الطواغيت عند البلد ثلاثة ايام بلياليها ليؤدي هو والمسلمون مناسك عمرتهم وهذا اول الفتح .

ونزلت عليه الاية الكريمة .

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرا إن شاء الله آمنين مُحلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم م لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » .

وعاد جابر مع من عاد الى المدينة ، ولكن ايمان هذا الرجل اكبر من ان يوسوس الشيطان في قلبه ، فتعود جاهليته الرعناء ، ويأسف للثأر . .

ويمر عليه ذات يوم سعد بن معاذ من زعماء الانصار ، وهو في فناء المسجد ، ويقول له : يا جابر ، وهل شابك شيء من امـ النبي في صلح الحديبية . . ويلتفت المؤمن الطاهر الى سيد الخزر ويقول : اني آمنت برسول الله ، وانه لم ينطق عن الهوى ، إ هو إلا وحي يوحى . وما اختاره النبي هو عين الصواب . .

فرد عليه سعد جزاك الله يا جابر جزاء المؤمن المجاهد . .

وتقول المصادر ان جابر شارك مع النبي (ص) بثمان عش غزوة ، كان فيها مثال المجاهد المؤمن

ولبى النبي نداء ربه ، ولم ينه جابر حياة الجهاد ـ كما اختار ذلك غيره ـ بل انتقل الى حياة اخرى مع الامام علي لا تقل شموخاً عما كانت من قبل ، وانقطع اليه حتى عدّ من اصفيائه .

وقد سأله بعضهم ـ وهو شيخ قد علته السنون ـ أي رجل كان علي بن ابي طالب (ع) . . . فرفع جابر حاجبه عن عينه ، وكان قد سقط عليه ـ ونظر الرجل طويلا وقال : « ذاك خير البشر ، اما والله كنا لنعرف المنافقين على عهد رسول الله (ص) ببغضهم اياه » .

ويجري الزمان سراعا ، ويطوي من عمر هذا الصحابي الشيء الكثير ، وفي عهد معاوية تبلغ اصداء الاحداث الدامية اسماع هذاالصحابي ، من ان شيخ الامويين قد أمر ان يلعن وصي رسول الله وحبيبه ، وزوج ابنته ، واول من صلى وآمن .وان يوغل في الحقد ، فيأمر بجعل سبه على المنابر بعد كل صلاة سنة ، ويثور الصحابي الجليل ، ولا يخشى سيف معاوية المصلت على رقاب محبي علي ابن ابي طالب ، ولا يهمه ما يبلغه من عمال ابن ابي سفيان وانهم قد تمادوا في قتل اصحاب الامام علي في كل مكان . لم يقف في وجهه كل ذلك ، ورغم انه شيخ تجاوز المائة من العمر ، اخذ يتوكأ على عصاه ويدور في سكك المدينة ويخطب في الناس : يا معاشر المسلمين أدبوا اولادكم على حب علي ابن ابي

طالب ، فعلي خير البشر ، ومن أبى فقد كفر . .

وهكذا يبقى لسانا صادقا ، وقلبا صلدا ، وانسانا مجاهـداً في قولة الحق . .

رفاعة بن رافع بن مالك بن دريق الأنصاري

ولملمت الشمس اطرافها عن الافق ، وبدت عتمة المساء تزحف رويدا رويدا ، حتى اذا نشرت اجنحتها واحالت الدنيا الى ظلام دامس فلمعت السماء بكواكبها الفضية ، لتأذن للسمار باللقاء .

وكان مجلس ابو معاذ واحدا من تلكم المجالس ، التي تزخر فيها ليالي البادية ، وتحلق المستمعون حول محدثهم ، وكلهم اذان صاغية له . وبدأ يتحدث واحداث السنين تمور في عينيه وقال :

كانت السنوات السبع التي انقضت من هجرة النبي (ص) الى المدينة زاخرة بالجهاد ، عامرة بالغزوات ، فمن بدر ، إلى احد ، الى الخندق الى خيبر ، واحدة تلو الاخرى ، يفتح الله لرسوله ، ويكسبه النصر . فالاسلام اصبح قوة صامدة في وجه الباطل ، يجتاحه كلما زحفت معه الايام .

وقريش تتضاءل مع الزمن امام مجد الدعوة المسلمة ، ورغم

تدهورها وتقلصها فان حقدها على رسول الله (ص) لم يهدأ ، وان خوفها من الاسلام لم يخف . فقد كانت تتحين الفرصة للانقضاض على الدعوة ورسولها .

وطرق اسماع قريش ما اصيب به المسلمون في وقعة مؤتة ، من خسارة عظيمة في قادة جيشه ، بعد مقتل زيد بن حارثة ، وجعفر بن ابي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وأثر ذلك في جيش المسلمين ، وانسحب من المعركة ، عائداً إلى المدينة ، وهو يحمل همّ الخسارة العظمى بقادته ـ عاد لا منتصراً ولا منكسراً .

وهذا القدر يكفي لأن يثير كوامن الحقد والفرح في قريش . فقد باتت جموع مكة السائرين في ركاب قريش مهددة الكيان ، مهزوزة الجانب ، كما هو شأن قريش .

ولماذا لا تستغل الفرصة ، وقد عاد جيش المسلمين من مؤتة وقد روّع بقادته وأرهق بما أصيب من نكبة ، وقد انعكس هذا الموقف على رسول الله والمسلمين في المدينة .

ومع ان قريشاً قد تقيدت مع النبي بعهد في صلح الحديبية ، بأن لا يعتدي كل منها على الاخر ، ومن أحب ان يدخل في عهد رسول الله (ص) فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش فليدخل فيه . غير ان الوقت في حساب قريش ـ للانقضاض على محمد ودعوته ـ قد حان . ولينقطع العهد ، فان

الحقد يغلي في نفوس اولئك الـذين مزقهـم الطمـع ، وانهـارت شخصياتهم على اعتاب الاسلام .

تقول الرواية :

وصلح الحديبية كان قد قضى : أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه ، وكانت خزاعة قد دخلت في عهد محمد ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش ، وكانت بين خزاعة وبني بكر ثارات قديمة سكنت بعد صلح الحديبية وانحياز كل من القبيلتين الى فريق من المتصالحين فلما كانت مؤتـة ، وخيل الى قريش أن المسلمين قُضي عليهـم ، خيل الى بنـي الـديل من بنـي بكر ان الفرصـة سنحـت لهـم ليصيبـوا من خزاعـة بثاراتهـم القديمـة . وحرضهم على ذلك جماعة من قريش ، وأمدوهم بالسلاح . وفيما خزاعة ذات ليلة على ماء لهم يدعى الوتـير اذ فاجأتهـم بنـو بكر فقتلوا منهـم . ففـرت خزاعـة الى مكة ولجـأوا إلى دار بديل بن ورقـاء ، وشـكوا اليه نقض قريش عهدهـم مع رسـول الله (ص) ، فسـارع احدهـم الى المدينـة ، واخبـر النبـي بنقض العهد . عندها رأى النبي ان ما قامت به قريش من نقض عهده لا مقابل له الا الوقوف في وجههم . والزحف اليهم .

وماج خبر في المدينة ، يهز ابواب المهاجـرين والانصـار كأنـه

العاصفة ، ويخترق اسماعهم كهدير الرعد . . ان قريشا نقضت عهد رسول الله (ص) واستنصرته خزاعة ، ووعدها بالثأر ، وأمر المسلمين بالاستعداد لكن إلى اين لا يعرف احد . هل لغزو بني بكر ، أم لأكبر من هذا ؟

وضم المجلس عدداً من الصحابة ، كان من بينهم رجل قد بلغ العقد الرابع من عمره ، مديد القامة ، أسمر اللون ، محترم الجانب ، من وجوه الانصار يدعى رفاعة بن رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق الزرقي وقد شهد مع رسول الله (ص) بدرا وأحدا ، وسائر مشاهده .

وكان رفاعة في مجلسه هذا شارد الفكر تدور عيناه في السماء كأنها تبحث عن شيء . لم يلتفت الى ما يدور حوله من لغط وحديث . انه يجول في ذهنه وينتقل بافكاره هنا وهناك .

لم يكن رفاعة بالرجل الجبان حتى يخاف الحرب ، ولم يكن بالانسان الذي لم تملكه دعوة محمد بكل ابعادها ، حتى تدب فيه الوساوس . . انه كان ذلك البطل الذي وقف الى جانب نبيه القائد من يوم ايمانه بالدعوة ، بوعي ، وثبات . وكان ذلك الرجل الذي قد ملك قلبه حب محمد وتفانيه في دعوته ، ايمانا منه بان هذه الدعوة المسلمة سوف تبدل الاوضاع السائدة جذريا في مجتمع تحكمت فيه المطامع الشخصية ، والاستغلال والجشع . ولم يكن

الا هذا الانسان الصابر الصامد رسول الله منقذا لهذا المجتمع .

اذن ماذا كان يجول في ذهن رفاعه في تلك اللحظات ، وانباء الاستعدادات من قبل المهاجرين والانصار تمور في ارجاء المدينة وتوابعها كأنها العاصفة . .

كان رفاعة في خارج المدينة في يومه ذاك ، وقد سمع ، بان قريشا قد شعرت بغلطتها ، وقدرت مسؤولية نقض العهد . فمحمد لم يكن في يومه هذا كأمسه ، قوة يستهان به ، وفردا التف حوله الضعفاء من الناس ، فيصبون عليه ، وعلى اتباعه الوانا من الظلم والتعسف، ما يطفىء حقدهم . الامر بالعكس تماما ، فرسول الله اقوى جانبا من أمسه ، ودعوته تزداد تقدما وبأساً . وليس لهم المقاومة امامه .

واجتمع ذوو الرأي من قريش في دار الندوة ، وتداولوا في الامر ، وقرروا ان يستدعوا ابا سفيان للمشاورة .

يا ابا معاوية ان هذا الامر لا بد له ان يصلح ، وان ترك بدون حل فما هي الا برهة من الزمن ومحمد باصحابه يطأون امجادكم باقدامهم في هذا البلد .

واعتدل ابو سفيان في مجلسه ، وازاح عن وجهه كابوسا قد اخذ عليه مجامع فكره ، والتفت الى قومه ، وهو يلمّ شوارد الكلمات ،

ويحاول ان يدفع عنه هموم السنوات السبع من عمر الدعوة الاسلامية ، ويقول لاسياد قبيلته :

ان هندا قد رأت رؤيا كرهتها ، واقلقتها ، وضاقت من شرها . . لقد رأت كأن دما أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندق مليا ، ثم كأن ذلك الدم لم يكن . . .

فكره السامعون هذه الرؤيا ، وقالوا : هذا هو الشر . .

يا ابا معاوية تدارك الامر ، واركب للمدينة ، لتثبت العقد مع محمد ، وتزيده سنتين ، وعسى ان ترد عن بلدك وموطن آلهتك شرا . .

كان رفاعة يفكر في سفر ابي سفيان ، وماذا ستكون اجابة النبي له وليت رسول الله لم يقبل منه قولا ، ويرده ردا فظيعا . . فان احداث هذه السنوات السبع ، وما مرت فيها من ويلات كانت كلها من هذا الانسان الفض وامثاله . اولئك النفر الذين ما عرف الطيب له طريقا الى قلوبهم ، ولا خامرت الرحمة لحظة نفوسهم ، وان مصالحهم الشخصية ، ومطامعهم المالية فوق كل اعتبار . .

ودار في ذهن رفاعة ان يذهب الى النبي فيكلمه عما يجول في نفسه ، ويحكم زمام الموقف ، ولكن رسول الله لم ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى ، وهو اعرف بمصلحة الامة .

وعليه ان يتريث ، وليكشف المستقبل القريب عن النتيجة .

وبينما رفاعة غائم في افكاره ، اذ بالخبر يرد على مجلسه بان ابا سفيان على ابـواب المدينـة ، وعلى العيون ان ترقـب تنقلاتـه وتحركاته .

وابو سفيان صلف الى ابعد ما يتصور ، ورغم هذا فقد اخذته رعدة وهو يلج باب يثرب ، مركز الدعوة الاسلامية ، انها مدينة محمد يتيم قريش ذلك الانسان الذي فر من مكة ليلجـأ اليهـا ، فينشر منها دعوته على بطاح الجزيرة العربية .

تدور عيناه هنا وهناك ماذا ترى ؟ بيوت اولئك النفـر الـذين سامهم بالامس العذاب والهوان ، بيوت المستضعفين تترنح زهوا الى جنب بيوت الاسياد من ذوي الجاه واليسار ، تعيش في أمان ، وحسن جوار ، يطوف عليها جوّ زاخر بالمحبـة والمودة ، ويعمـر جنباتها رضـاء وقناعة .

ماذا يرى . . حلقات المسلمين، تطرز ساحـات هذه المدينـة تضم الوجوه التي فارقها بالامس ، وقد كواها بحـديده ونـاره ، وهي اليوم تشع ايماناً ، وتزهر عقيدة .

اضطرب ابو سفيان. طاغية الأمـويين ـ واصطـكت اسنانـه ، وارتعشت ساقـاه . انـه يرى ـ ويا لهـول ما يرى ـ مسجـد يتيم

قريش ، وقد ازدحم فيه المسلمـون ، وكلهـم سيوف شارعـة ، وعيون لم تخمد فيها جذوة النصر .

انه جبن عن مقابلة رسول الله لاول وهلة ، وولى وجهه شطر بيت ابنته رملة المكناة بأم حبيبـة ـ وكان النبـي (ص) قد تزوج منها ، وهي بالحبشة بعد وفـاة زوجهـا ـ أو تنصره على اختـلاف الروايات ـ .

طرق الباب وفتحته له . وجمدت عيناها ماذا ترى ام حبيبة ان اباها المشرك على باب رسول الله يطرقها . لا مجال للعاطفة في هذا المجال ، انها قبل كل شيء مسلمة ، وزوجة الرسول ، ولا بد لها من تحديد موقفها مع ابيها .

وولج ابو سفيان الى داخل البيت ، وتوجه الى بساط مفروش ليجلس عليه ، ولكن أم حبيبه بادرت اليه ، وقبل ان يضع ابوها قدمه عليه ، طوته دونه . وارتاع الاب من هذا الموقف ، فسألها والدهشة تلفه ـ يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عني ؟ .

وكان جوابها له بمثابة صفعة لا تطاق قالت له : بل هو فراش رسول الله وانت رجل مشرك نجس ، ولم أحـب أن تجلس على فراش رسول الله (ص).. فقال لها : لقد اصابك يا بُنية بعدي شر ، وخرج غاضبا .

وصمم على مقابلة النبي ، ولكن هل يتركه موقف ابنته منه ؟ ، ابداً فقد اصابته خيبة . وروعه هذا الاخلاص ليتيم قريش .

واقبل على رسول الله (ص) ، وفتح المسلمون له الطريق ، حتى وقف قبالة النبي ، وكلمه عما جاء به انه يريد تجديد العهد ، وتمديد المدة ، ولم يجبه الرسول بشيء ، وطال به المقام ولم يفلح بجواب ، فانثنى لابي بكر ليكون له وسيطا عند النبي فأبى ، وتوجه إلى عمر ، وعثمان فلم يحصل منهما على مساعدة .

انه لم يجد منهم التجاوب فأين يذهب ؟ قالوا له : اذهب الى دار علي بن ابي طالب وكلمه بهذا الخصوص ، فهو ابن عم الرسول ، وزوج أبنته فاطمه ، وموضع ثقته ، وهو لهذه المهمة أهل .

وليس بالهين على ابي سفيان ان يطرق باب ابي الحسن ، انه يعرف جيداً مكانة علي من رسول الله ، وانه عدوه اللدود ، جندل الابطال ، وهزم القادة ، وان حقده وحقد زوجته هند على ابن ابي طالب غير مكتوم ، ولم تجف بعد دماء عمه حمزه ، ولم تغب عن ذهنه ، وحشية زوجته هند وهي تلوك كبد بطل الاسلام ، وتمثل بجسده . وان عليا احد الثلاثة الذين دفعت هند وحشيا لقتلهم ، ومنته بكل ما يريد حتى وان كانت هي مراده .

كل هذا دار باسرع من البرق في ذهن شيخ الامويين ، وهو

يتوجه الى بيت علي . ومع هذا كله ، فهو يعرف ايضا ان عليا لم يكن فتاكا او مختالا فهو في ساحة الحرب غيره في لحظة السلم ، وحاشاه ان يغدر بانسان يقصد بيته حتى ولو كان من اشد اعدائه كمثل ابي سنفيان ، وله من الشرف والقيم ما يمنعه من الغدر مع أي كان ، حتى ولـو كان مثل ابي سفيان ، فليس للكذب والغدر حساب في واقع علي بن ابي طالب .

وعلى هذا الاساس يمم ابو سفيان وجهته نحو بيت ابن ابي طالب ودخل عليه ، وكانت في البيت فاطمة بنت الرسول ، ولما يعبسا في وجهه . انه الخلق العالي ، والمثل الانسانية الرائعة ، كما لم يمنعاه من الدخول ، انما استفسرا منه :

ماذا جاء بك يا ابا سفيان ؟ ويرد عليهما والكلمات تكاد تموت على شفتيه رهبة واضطرابا ، يقول : يا علي : انك امس القوم بي رحما ، وقد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا ، فاشفع لي عند رسول الله .

ولكن عليا ، وهو الوحيد الذي يعـرف حال الرسـول ، قال له : والله لقد عزم رسول الله (ص) على أمـر فلا نستـطيع ان نكلمه فيه .

ثم التفت الى فاطمة ، فقال لها : هل لك ان تأمـري ابنـك

هذا ـ ويشير الى الحسن ـ فيجير بين الناس ، ويكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

فردت عليه بلطف : والله ما بلغ ابني مبلغا يجير الناس ، وما يجير أحدا على رسول الله (ص) .

وفشلت آخر محاولة لابي سفيان ، وضاق ذرعا بالموقف ، ثم التفت الى علي قائلا : يا ابا الحسن : اني ارى الامور قد اشتدت علي ، فانصحني ؟

قال له : والله ما اعلم لك شيئا يغني عنك شيئا ، ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بارضك .

قال ابو سفيان ـ والذل يلف موقفه ـ : أو ترى ذلك مغنيا عني شيئا ؟

قال له علي : لا والله ، ما اظنه ، ولكني لا اجد لك غير ذلك .

فقام ابو سفيان ، ووقف على باب المسجد ، واعلن امام الحشد بأنه قد اجير بين الناس ، وركب بعيره وانطلق الى مكة عائدا بخيبته ، وقلبه يتفصد اسى ولوعة على ما لقيه من ذل وهوان في سفره .

وعاد ابو سفيان الى مكة ، وقص على قومه ما لقيه بالمدينة ، من

فشل ذريع في مهمته ، وتراجع القوم من حولـه ، يتغامـزون ، ويتهامسون . ثم بدأوا يتشاورون ، لا بد من العمل . ان محمدا لم يتـرك الفرصـــة تذهـــب سدى ، واخـــذت قريش في جمــع شملها . .

وأمر النبي المسلمين بان يجهزوا أنفسهم للخروج دون ان يخبر القوم وجهة سفره ، فقد كان في همه ان يباغـت اعدائـه في غرة منهم ، فلا يجدوا له دفعا فيسلموا من غير ان تراق دماء .

وكان رفاعة الصحابي الصادق من جملة من استعد للخروج مع النبي انه لم يترك غزوة ، ولا مشهداً الا وكان مع رسول الله في سفره . ولكن الى اين لا يدري . كل يتساءل من الاخر عن وجة السفر ، فقد كان النبي (ص) متكتما ، لا يريد ان يبلغ قريشـا خبره .

وتحرك المسلمون نحو مكة ، فقد صمم النبـي ان يفتحهـا ، ولواءه يخفق بيد علي ابن ابي طالب ، وقد انضمت القبائـل الى المهاجرين والانصار ، حتى بلغت الرواية بعشرة الاف مقاتل .

وكان ابو سفيان يتطلـع الاخبـار لقـريش ، فلما رأى جيوش المسلمين هاله وفزع ، وقدر في نفسه ان محمداً لو دخل بقوته هذه مكة ، فلا يبقى فيها متنفس من قريش . وخيم عليه الوجوم ، ما هذه الحشود الرابضة ؟ ثم اخذ يحاور صاحبه بديل بن ورقاء .

ابو سفيان : ما رأيت كالليلة نيرانا قط ، ولا عسكرا .

بديل : هذه والله خزاعة احرقتها الحرب .

ابـو سفيان : خزاعـة أذل وأقـل من ان تكون هذه نيرانهـا وعسكرها .

وخيم الصمـت عليها . واذ هما في هذه الحالـة قد مر ركب العباس بن عبد المطلب ، وقد سمع حوارهما . فنادى ابا سفيان بكنيته : يا ابا حنظلة . وإطمأن ابو سفيان للصوت ، وعرف انه العباس ، فرد عليه يا ابا الفضل . نعم ، فقال له : فداك أبـي وأمي ما هذه الحشود الرابضة ؟ قال له : هذا رسول الله في عشرة الاف مقاتل وهو مصبحكم . فقال له ابو سفيان ، وهو يهتز من الاضطراب ـ يا ابا الفضل ـ ما الحيلة ؟ قال : والله لئن ضفر بك ليضربن عنقك ، فاركب معـي لنذهـب الى رسـول الله (ص) فأستأمنه لك . . واردفه خلفه . . حتى اذا دخل به على النبي . وقال له : إني يا رسول الله قد اجرته . .

ودار في مجلس النبي نقاش ، بعضهم يريد قتله ، فابو سفيان رأس الحية واخرون ينتظرون امر النبي فيه ، ولـم يسبقـوا عليه امرا . وكثر اللغـط ، وامتـد الجـدل بـين العبـاس ، وعمـر بن الخطاب ، يريد الاول ان يجيره ، ويهم الثاني بقتله ويحسم النبي الموقف ، ويأمر عمه بان يذهب بابي سفيان الى رحله ، ويأتي به

في الصباح ، ليرى فيه رأيه .

وفي الصباح اعتمر مجلس النبي بوجوه الصحابة من مهاجرين وانصار ، وجاء العباس ومعه زعيم الامويين ، وادار عينه فيهم ، فلم ير الا الوجوه المؤمنه بالله ، والقلوب العامرة بالدعوة ، والنبي في وسطهم كأنه البدر :

النبي : ويحك يا ابا سفيان ألم يأن لك ان تعلم انه لا آله إلا الله ؟

ابو سفيان : بابي أنت وأمي ، ما أحلمك واكرمك ، وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد .

النبي : ويحك يا ابا سفيان ، ألم يأن لك ان تعلم اني رسول الله ؟

ابو سفيان : بأبي أنت وأمي ، ما احلمك واكرمك ، واعظم عفوك ، اما هذه فان في النفس منها حتى الآن شيئا .

وتكهرب الجو ، وامتدت الايدي الى قوائم السيوف . واعتصرته العيون فخاف العباس ان يتفاقم الموقف فقال لابي سفيان ويحك أسلم واحفظ حياتك من القتل ، فان سيوف محمد تكاد تلتهمك قبل ان يرتد طرفك .

وطاف ابو سفيان في وجوه الحاضرين ، فلم ير فيها غير الاصرار والثبات وتقدم من النبي - وهو على كره - ونطق بالشهادتين ، وقلبه لم يعرف الايمان .

والرسول لم يخدع باسلام ابي سفيان ، وانما يعلم انما دخل الاسلام كرها ليصون نفسه من القتل ، وهو عائد الى قومه ، ومحدثهم عما شاهده من خلق رفيع ، وقيم عالية . ولماذا لا يزرع في اعماقه الرهبة ، وهو يرى قوة المسلمين ، وكتائبهم تمر عليه ، فيحمل صورة ذلك الى بطانته في مكة .

قال النبي للعباس ان يأخذ ابا سفيان لمكان بمضيق الوادي عند مدخل الجبل الى مكة ، حتى تمر به جنود الله فيراها . وكان ما اراد . الرجلان في مضيق الوادي والكتائب تترى واحدة تلو الاخرى ، وابو سفيان يسأل عن كل واحدة من الكتائب التي تمر عليه ، فيعرفه بها العباس ، حتى أطلت الكتيبة الخضراء ، وقد حف به الانصار والمهاجرون ، لا يرى منهم الا الحدق من الحديد ، فارتعدت فرائص ابي سفيان ، وبان عليه الارتباك ، وسأل العباس عن هذه الكتيبة فرد عليه انها كتيبة رسول الله ، قال له : ما لا حد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة . والله يا ابا الفضل ، لقد اصبح ملك ابن اخيك الغداة عظيما . فركزه العباس بيده وقال له : ويحك انه ليس بملك وانما هي النبوة . . وسكت على مضض .

كان ابو سفيان يغلي كالمرجل ، فقد تأكد الآن بأن مجده قد هوى ، وأن سلطان قومه قد انهار ، وها هو محمد سيدخل مكة فاتحا منتصراً . وودع العباس ، ودفع بناقته على السير ، وبلغ مكة ، ونفوس القوم تلهث اليه ، وعيونهم تتصاعد نحوه ، وتتعالى النداءات ماذا ورائك يا ابا سفيان . فصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبلَ لكم به . تفرقوا عنه . من دخل داره فهو آمن . .

لم تمر سواد تلك الليلة حتى كان جيش المسلمين على ابواب مكة ، وكان اللواء بيد سعد بن عباد ، وامره النبي ان يدخل مكة برفق ، وذلك بعد ان قسم جيشه الى اربعة اقسام ، ليدخل كل من جهة ، ويكون الجيش مرة واحدة في مكة .

ثم امرهم بالزحف ـ وهز الراية سعد بن عباد واخذ ينشد :

اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة

واثار ذلك بعض الصحابة فاخبروا النبي (ص) وامر علي بن ابي طالب أن يأخذ الراية من سعد ويدخل بها هو .

لم يرغب النبي ـ وهو مثل الانسانية ـ ان يريق قطرة دم في فتحه لمكة وحاول ان يتجنب ذلك مهما امكنه . ولهذا امر جيشه الا يقاتل ويضع سيفه في الرقاب الا اذا اضطر لذلك ، واكره عليه اكراها .

ثم انه لا يريد ان يخلط بين الثأر ، والفتح ، فالماضي مهما كان قاسيا واسوداً ، ومرا فله حكمه الخاص . فانه لعلى خلق عظيم . وليس من الاسلام اخذ الثأر ، فالعفو عند المقدرة من اهم صفات هذه الدعوة .

وكانت اللحظة الحاسمة ، فقد دخلت جيوش المسلمين مكة ، ولم تلق منها مقاومة الا في جهة واحدة ، فقد دار قتال ، وكان قد تجمع في تلك الناحية اولئك الذين اكلهم الحقد ، وتنمرت في نفوسهم البغضاء امثال صفوان بن سهيل ، وعكرمه بن ابي جهل . ولكن المقاومة لم تدم فقد ولوا الادبار .

وطافت في اذهان المهاجرين - وهم على ابواب مكة - افكار وافكار . . لقد كانت الايام السوداء تمر على هذه الصفوة وهم يعانون من عنت قريش وظلم طغاتها ما اخجل التاريخ .

ان الفترة الزمنية التي مرت على رسول الله (ص) وصحابته من بدأ الدعوة الى هذا اليوم حملت في طياتها اعنف صور الصراع بين الحق والباطل . وهي كافية لان تثير في نفوس المضطهدين بالامس ، والمنتصرين اليوم . زخما من الثأر المتعطش للسفك والدمار .

ولكن مثل الاسلام خلقت منهم اناساً جدداً ، وبلورت افكارهم الى ما فيه الخير ، والصلاح . وما بادرة سعد بن عباد -

وهو يحاول ان يدخل مكة ـ اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، الا تعبيرا واقعا عن كوامن هذه الجموع التي لاقت من عنت الطغات وظلمهم ، وقسوتهم ، وعنفهم ما يعجز عن وصفه الواصفون .

بيد ان الاسلام هذب النفوس ، وطهر القلوب ، وصقل المواهب وحولها الى طاقة خير ، لا شر .

دخل رسول الله مكة وعلى اعتابها شكر الله سبحانه على هذا الفتح المبين . . وتعالى من اعلى الكعبة صوت بلال « الله اكبر . اشهد ان لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله » .

كلمات دوت لها مكة ، ورددت صداها آفاق هذا البلد العتيد ، وانها بالنسبة لرسول الله اعز ما ينتظر واجل ما يأمل . من اجلها بذل الغالي والنفيس ، وفي سبيلها جاهد وضحى .

وتعالت معها اصوات المسلمين فرحة مستبشرة بما منّ الله عليها من الفضل الكبير .

وتمزقت معها قلوب الكفرة المشركين اسى ولوعة ، فقد انهارت احلام الالهة ، وتهاوت عروش الظلم والاستبداد .

ودرج ركب النبي إلى الكعبة ، حتى وصلها طاف في البيت سبعا ، والمسلمون بين تهليل وتكبير ، وطهر البيت من الاصنام ،

حيث امر علي ابن ابي طالب بتكسيرها .

واطل رسول الله من الكعبة على المسلمين ـ وهو يمسك بعضادتي بابها ـ وكانوا قد تجمعوا حولها ، وثلة من المشركين على الجبل ينظرون الى هذا الموكب الحاشد والى رسول الله ، فخطب فيهم قائلا :

« لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الاحزاب وحده ، الا كل مأثرة ، أو دم ، او مال يُدَّعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدنة البيت ، وسقاية الحاج . . .

يا معشر قريش ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم من تراب .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم » .

كان الصحابي رفاعة بن رافع في حشد من اخوانه المؤمنين من الانصار على مقربة من رسول الله ، وهو يخطب في المسلمين اول خطبته بعد الفتح ولم يلتفت الصحابي الجليل الى نفسه وقد ارهقه السفر ، وعناء الطريق انما نسي ـ كأي مخلص في هذا الركب العقائدي ـ الماضي ، وشغله التفكير بالمستقبل ، وقد منّ الله عليهم بالفتح ، واصبحت مكة تحت سلطة محمد فماذا سيكون

موقفه من اولئك الطغاة الذين ساموه وصحابته الوانا من العذاب والهوان ؟ .

ويهمس احدهم في اذن الاخر ، ان حساب قريش سيكون عسيرا في هذا اليوم . كيف يتناسى رسول الله (ص) ماضي قاس عانى فيه هو والكثير من اصحابه مرّ الايام ، وعذاب الليالي . .

ويلتفت رفاعة الى اخوانه ، ويذكرهم بأن محمداً رسول الله ومثل الانسانية ، لم يحمل ضغنا في نفسه على احد ، ولا يتربص بعدوه المناسبة كي يبطش به . انه لم ينتقم ، ولم يفكر بالانتقام ، يريد الخير للجميع .

ويقطع النبي ما يدور في الاذهان ، ويخاطب جموع المكيين :
« يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل فيكم ؟ . »
قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وأبن أخ كريم .
قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء !! » .

ولم يكن محمد غير هذا . فهو رسول الله ، ونبي الرحمه ، ومثال الخير ، والعفو والكرم والشهامة من بعض صفاته .

لم يكن للماضي في فكره حساب ، ولا للثأر من الضعيف في نفسه أهمية .

وان موقف قريش منه في السابق ، وقد مكنه الله منهم قد

تناساه ، واسدل عليه ستارا من رحمته . انه بعث ليتمم مكارم الاخلاق .

انه يريد الخير للامة ، وسمو النفس ، والعزة ، والكرامة ، فلا سيد ولا مسود ، كل الناس من آدم ، وآدم من تراب . نظرة انسانية شاملة توحد المجتمع البشري ، وتشد افراده بوشائج الاخوة ، والمحبة والعدل والمساواة . « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

هذه الصورة الاسلامية التي يعرضها على المجتمع المكي الغارق بالطبقية ، في اللحظة الاولى من شروق الاسلام . وهو بهذا الموقف الرائع حطم كل الحواجز الطبقية في مجتمع مثقل بركام الجاهلية الرعناء .

ولماذا عالج النبي (ص) الطبقية قبل كل شيء في مكة ، وهو لم ينفض عنه تراب السفر ؟

ان المجتمع المكي كان قائماً على هذا اللون من الحياة ، وكان طغاة مكة يحاربون الاسلام ، لأنه يهدم هذه الحواجز ، فقد طرق اسماعهم من قبل ان محمدا اعلن بوضوح اكثر من مرة حقيقة الانسان في المجتمع الاسلامي تقواه واخلاصه « فلا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على اسود الا بالتقوى » .

فالتقوى هو المقياس الأول - في الاسلام - لتحديد قيمة الانسان ودوره في بناء المجتمع الاكمل الذي يتطلبه الاسلام ، فلا الغنى ، ولا الجاه ولا السلطان ، ولا العرف ، ولا المحتد ، ولا الآباء ، لها حساب في تحديد دور الفرد في المجتمع ، لانها لا تنسجم وشمولية الاسلام ، وانسانيته ، وسموه .

وانهال الناس على النبي يعلنون اسلامهم ، بعد ان لمسوا سماحة الرسول ، وعطفه ، وتهافت قريش على البيعة ، واعلان الطاعة .

كانت الايام تمر على النبي في مكة ، وهو منهمك في ترتيب امرها اداريا واجتماعيا ، وقد انقضى وطر من الشهر ، والرسول لم يعلن عن عودته الى المدينة بشيء .

فدار حديث بين الاصحاب ، وامتد الى تساؤل فيما بينهم ، أيتخذ النبي من مكة مركزاً له بدلا من المدينة ، وترامى الى سمعه ما دار من الحديث بين اصحابه ؟ فلما فرغ من دعائه سألهم عن أمرهم فنقل له رفاعة : الخبر فقال : لهم (ص) « معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم » .

وتمر على النبي خمس عشرة ليلة في مكة ، وقد استتب فيها الوضع واستقرت الاحوال ، عندها أعلن رسول الله عن عودته الى المدينة ، وشدت الرحال ، وعاد الركب النبوي ، وهو يرفل

بالنصر والفتح ، وصدى التكبير يدوي من أعلى الكعبة كل يوم خمس مرات « الله اكبر اشهد ان لا اله الا الله » .

عاش رفاعة طيلة ايام النبي ، وهو قريب منه ، وقد شاهد مكانة علي بن ابي طالب عند رسول الله يكاد لا يفترق عنه ، ويسمع كما يسمع الصحابة منه قوله (ص) : « يا علي الناس من شجر شتى ، وأنا وأنت من شجرة واحدة » . ثم يسمع كما يسمع الصحابة قول عمر بن الخطاب وهو يقول : اشهد على رسول الله (ص) لسمعته وهو يقول : « لو ان السموات السبع وضعت في كفة ، ووضع ايمان عليّ في كفة لرجح إيمان عليّ » . وغير هذا وذاك كثير وكثير .

ويختص رفاعة بعلي بعد وفاة النبي (ص) وهو يشهد الازمة التي حلت بالمسلمين بعد وفاة نبيها ، ثم تتم الخلافة كما خطط لها ، وعلي لم يشأ يحرك ساكنا في مطالبته بحقه ، لان الحفاظ على وحدة المسلمين اهم لديه من كل شيء .

واذا ما انتهى دور عثمان ، وكان ما كان . اجتمعت الصحابة في مسجد الرسول للنظر في امر الخلافة ، فكان رفاعة ، وعمار بن ياسر ، وابو ايوب الانصاري وغيرهم يرون ان الامر لا يتعدى عليا ، فهو احق به من غيره ، واذا كانت الظروف الزمنية قد

فرضت تأخير علي عن حقه طيلة هذه المدة . فان الحق يعود الى اهله بالنهاية .

ولكن عليا لم يوافق ان يتولى امر الناس . لانه يعرف مسبقا ان القوم لم يتحملوا قيادته ، فهو - كما قال عنه عمر بن الخطاب - لو توليتهم لحملتهم على المحجة البيضاء . وطريق الحق مر ، وان النفوس التي تطبعت على الاثرة بحكم سياسة من قبله لا تطيق الحكم الصحيح ، والعدل بالرعية ، والمساواة في العطاء . ولهذا فانه اصر على الابتعاد عن الحكم . غير ان علية الصحابة ، ومنهم رفاعة الحوا عليه بتحمل المسؤولية مهما كلف الامر . فالحق أحق ان يتبع ، والباطل لا بد ان يزهق .

ويرضخ الامام علي لقبول الخلافة ، وينهال عليه الناس من كل حدب وصوب يشدون على يده بالبيعة ، ويباركون له بالخلافة .

وانتظر الناس منهج الامام علي في الحكم ، ومعالجته للمشاكل المتعددة ، والتركة الثقيلة التي خلفها عثمان .

واعلن الامام علي انه سيخطب في الناس يوم الجمعه ، فتجمع المسلمون لسماع ما سيقوله الامام ، وما يرسمه لهم من برنامج حكمه .

وأرتقى المنبر . وقال بعد ان حمد الله ، واثنى عليه :

« ايها الناس ، انما انا رجل منكم لي مالكم ، وعلي ما عليكم ، واني حاملكم على منهج نبيكم ، ومنفذ فيكم ما أمرت به .

الا ان كل قطيعة اقطعها عثمان ، وكل مال اعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال . . فان الحق لا يبطله شيء ، ولو وجدته قد تزوج به النساء ، وملك الاماء وفرق في البلدان لرددته فان في العدل سعة ، ومن ضاق عليه الحق ، فالجور عليه أضيق .

أيها الناس الا يقولن رجال منكم غدا ـ قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار ، وفجروا الانهار ، وركبوا الخيل ، واتخذوا الوصائف المرققة ، اذا ما منعهم ما كانوا يخوضون فيه ، واصرتهم الى حقوقهم التي يعلمون ـ حرمنا ابن ابي طالب حقوقنا .

الا وايما رجل من الانصار والمهاجرين من اصحاب الرسول يرى ان الفضل له على سواه بصحبته ، فان الفضل غدا عند الله ، وثوابه واجره عند الله .

الا وايما رجل استجاب لله ولرسوله فصدق ملتنا ، ودخل ديننا ، واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الاسلام وحدوده ، فانتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، ولا فضل فيه لاحد على احد ، وللمتقين عند الله احسن الجزاء . . فاذا كان الغد فاغدوا علينا ان شاء الله ، ولا يتخلفن احد منكم عربي ،

ولا عجمي كان من اهل العطاء » . .

وتفرق الناس بعد خطاب الامام ، وقد رسم منهاج حكمه بكل وضوح لا مواربة فيها ولا مخاتلة . سياسة عادلة تقوم على اساس من المساواة والحق والعدالة المتكافئة التي يتعايش في ظلها المسلمون سواء بسواء . سياسة تعمد الى تذويب التفريق الطبقي الذي سيطر على الامة حفنة من السنين .

وبدأت العاصفة . .

لم يرض الكثر من القوم منهج علي في الحكم ، وخاصة في السياسة المالية . فطبقة المنتفعين قد أصيبت بخيبة أمل ، فان عليا سلب نعمتها التي كانت تنعم به في العهد السابق ، ويحاول ان يجمعهم مع الضعفاء والمساكين على صعيد واحد في العطاء والحقوق .

وكان عليهم ان يثيروا الازمة بين الحاكم وشعبه . وهذا ما كان ، فلم يمر شهر واحد حتى خرجا طلحه والزبير على الخليفة واعلناها حربا على الامام بحجة النصرة للمظلوم عثمان ، وتؤيدهما في ذلك ام المؤمنين السيدة عائشة .

وتتفاقم الازمة ، ويشتد الموقف ، لقد تجمعت المعارضة لحكم الامام تحت ستار المطالبة بدم عثمان - وهي التي قتلت عثمان بالامس - لتعلنها حربا على الخليفة .

وتجتمع الصفوة من صحابة علي عنده ، ويسألهم الامام عن الموقف وماذا يجب ان يعمل لقمع الفتنة ، فعلي لا يريد الانفراد بالامر . ويقول كل منهم رأيه ، ويصل الدور الى رفاعة فيقف قائلا :

ان الله لما قبض رسول الله (ص) ظننا أنّا أحق الناس بهذا الأمر لنصرتنا الرسول ومكاننا من الدين ، فقلتم : نحن المهاجرون الأولون وأولياء رسول الله الاقربون ، وانا نذكركم الله ان تنازعونا مقامه في الناس ، فخليناكم والامر وما كان بينكم ، غير أنا لما رأينا الحق معمولا به ، والكتاب متبعاً ، والسنة قائمة رضينا ، ولم يكن لنا إلا ذلك . فلما رأينا الاثرة انكرنا لرضا الله عز وجل ، ثم بايعناك ، ولم نَألُ ، وقد خالفك من انت في انفسنا خيرُ منه ، وأرضى فمرنا بأمرك » .

وحدث ما حدث .

كانت واقعة الجمل ، وفيها المأساة ، واضطر الامام علي ومن حوله الصحابة الخلص الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم الى محاربة الخارجين على امامهم .

وينتفض رفاعة وسط جيش علي ، وسيفه بيده ، وهو يحارب ويقول لعمار ، وقد تشابكت السيوف ، واصطكت الاسنة : ألسنا على الحق . فرد عليه عمار : نعم ورب الكعبة . فيرد عليه

رفاعة بكل بطولة وايمان ـ اذاً لا نبالي أوقعنا على الموت ، أم وقع الموت علينا . .

وكما كان موقف الصحابي الجليل رفاعة في الجمل ، كان كذلك موقفه في صفين . على بينة من أمره ، ووضوح من موقفه ، فهو يرى عليا مع الحق ، يدور معه حيثما دار . .

رحم الله رفاعة فقد وصفته المصادر بأنه من عرفاء شيعة علي وعلمائهم ، المعروفين منهم بتمسكهم واخلاصهم له كعمار بن ياسر ، وابو ايوب الانصاري ، وابن التيهان . .

الحارث بن ربعي الخزرجي
أبو قتادة الأنصاري

وتحلق السمار ـ كعادتهم ـ حول محدثهم الشيخ أبو معاذ ، وهم في شوق الى سماع اخبار الرعيل الأول من بناة الدعوة الاسلامية ، الحاملين رسالتها في أحلك الظروف ، والباذلين الغالي والنفيس في سبيل اعلاء شأنها يوم عز فيه النصير . فخلدوا بموقفهم المشرف تاريخ أمة بكل فخر .

والتفت أبو معاذ الى مستمعيه ، وقال لهم : سيكون حديثنا في هذه الامسية عن شخصية جليلة ، عرفته حروب النبي (ص) فارساً مغواراً قارع الباطل بكل ايمان ، وفدائياً لعقيدته . ما خامر الجبن قلبه لحظة ما . . ذلك أبو قتادة الأنصاري . . دعا له النبي (ص) حين حرسه ليلة بدر قائلا : « اللهم إحفظ أبا قتادة ، كما حفظ نبيك هذه الليله » . .

وكان هذا البطل المجاهد في موكب الفتح ، وهو يشق طريقه من المدينة الى مكة ، وعاش اللحظة الحاسمة ، والتي كان يتمنى

كل مسلم مخلص لدينه ان تلامس عيناه دخول رسول الله (ص) في موكب الايمان مكة المكرمة ليطهر كعبتها من الاصنام ، وينتشل المجتمع المكي من جاهليته الرعناء الى حياة الكرامة والسعادة .

وفعلا كان ما اراد فأبو قتادة ممن شهد موكب الفتح ، وشارك فيه وعاش اعراسه ببطولة وايمان .

وقبل ان يعلن الرسول عن رحلة العودة الى المدينة المنورة ، كانت سرايا الدعوة تجوب القبائل المتاخمة لمكة وما حولها تدعوهم للاسلام ، ونبذ سلطان الجاهلية بأمر من الرسول الكريم . وقد أمرهم بالرفق واللين ، وعدم القتال ، وسفك الدماء .

وفي ضحوة يوم من تلك الايام ، كان أبو قتادة بخدمة النبي ، وقد وصله شخص من بني جذيمة قد اخذ الهلع منه مأخذا ، وبان الشحوب عليه وهو ينادي : يا رسول الله الغوث الغوث من خالد بن الوليد ، فقد سفك من دماء بني جذيمة ماصبغ الارض ، وغدر بهم ، ونهب أموالهم . فاليك المشتكى يا نبي الرحمة .

وانطبع التأثر على وجه النبي ، انه لم يرسل خالداً لهذه القبيلة ليضع المسيف فيها ، ويغدر بها ، وينهب أموالها . انه أوصى قادة السرايا ان يضعوا ركام الجاهلية تحت اقدامهم ، وان ياخذوا الناس بقيم الاسلام ومثله الرفيعة ، ولكن الرجال لم تتبدل ، ولم تنصهر بقيم الدين الجديد .

ويقول النبي لأبي قتادة : علي يا بن عمي علي - فهو رجل الموقف -! قبل أيام انقذ مكة من كارثة ، حين هم سعد بن عبادة ان يصفي الحساب مع اهاليها . فأمر النبي عليا ان يأخذ الراية من سعد ، ويدخل بها مكة رفيقا حانيا .

واليوم كذلك يأمر عليا بان يهرع لبني جذيمة فيمنع خالدا من القتال ، ويُرضي القوم بما يرفع عنهم وحشة الذعر .

كان خالد قد ذهب بسريته الى بني جذيمة ، وعندما وصل اليهم امرهم ان يضعوا السلاح بعد ان أسلم الناس . ولكن رجلا منهم قال لقومه : ويلكم يا بني جذيمة ، انه خالد بن الوليد ، والله ما بعد وضع السلاح الا الاسر ، وما بعد الاسر الا ضرب الاعناق ، والله لا اضع السلاح ابداً . . ولكن النفوس المطمئنة برسول الله التفت حول صاحبها ، واقنعته بقبول الموقف ، وان الرسول أمر قادة السرايا ان لا يقاتلوا الناس ، الا اذا قاتلوهم ، وقد وضعت الحرب اوزارها ، وآمن الناس ، وما زالوا به حتى وضع سلاحه ، فلما أطمئن خالد الى ان القبيلة وضعت سلاحها ، باغتهم وامر بتوثيقهم ثم وضع السيف فيهم فقتل من قتل .

بلغ هذا النبأ اسماع النبي ، وهزه، لم يرض الرسول بهذا الغدر ، انه ليس من خلق المسلم الصحيح الغدر ، وان للعهد شرفا في حساب الاسلام .

ولكن خالدا لم تمت فيه بعد جذور الجاهلية ، وقد جبل على المكر والخديعة ، وللثأر حساب في نفسه ، وقد كشف ذلك عبد الرحمن بن عوف حين عاتبه بعنف فقال له : يا خالد عملت بأمر الجاهلية في الاسلام ، فرد عليه خالد : إنما ثأرت لأبيك . فقال له عبد الرحمن : كذبت ، قد قتلت قاتل أبي ، ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة . واستمر بينهما الشجار ، فبلغ النبي ذلك . فقال : لخالد : « مهلا يا خالد ، دع عنك أصحابي ، فوالله لو كان لك أحدٌ ذهبا ، ثم انفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من اصحابي ولا روحته » .

ثم قام رسول الله (ص) فاستقبل القبلة رافعا يديه الى السماء ـ حتى انه ليرى مما تحت منكبيه ـ كما تنص الرواية ـ[1] وقال ثلاث مرات :

« اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » .

يا علي : دونك خالد في بني خذيمة ، وأمنعه من القتل ، وادفع الدية عن قتالهم ، واخبرهم عن عدم قبولي بما فعله خالد ، وأجعل أمر الجاهلية تحت قدميك . وزوده بالمال .

ونفذ علي أمر النبي ، فمنع خالداً من القتل ، ودفع دية القتلى

---

١ ـ سيرة ابن هشام القسم الثاني ٤٣٠ ـ ٤٣١/ ط البابي ـ مصر ١٩٥٥

عن النبي (ص) ، ورد عليهم اموالهم المنهوبة ، ثم فرق عليهم ما زاد لديه من أموال النبي ، ورجع الى مكة ليخبر الرسول بهدوء الوضع في بني جذيمة ، فدعا له النبي بالجزاء الأوفى .

وامسك ابو معاذ عن الكلام فجأة ، وعام في تفكير عميق ، وارتسمت على الجالسين الدهشة . ما الذي أسكت محدثهم عن الاسترسال في حديثه ، ولكن الشيخ قطع عليهم حبل الصمت ، وواصل كلامه قائلا :

عفا الله عن خالد ان رواسب الجاهلية ، وثارات بدر واحد بقيت تغلي في دمه حتى بعد اسلامه . لقد سمعنا موقفه مع بني جذيمة في حياة النبي ، موقف ليس له تفسير الا حب هذا الرجل لسفك الدماء وسبي النساء ، واثارة الرعب والهلع في الصغار ، وتشتيت الناس .

وكان له موقف اخر بعد وفاة الرسول ، لا يختلف عن سابقه ان لم يكن افظع منه . ذلك هو موقفه مع الصحابي الجليل « مالك بن نويرة التميمي » ، الذي قال فيه رسول الله (ص) : « من اراد ان ينظر الى رجل من اهل الجنة فلينظر الى هذا الرجل » وأشار الى مالك . .

وكان مالك ـ كما وصفته المصادر ـ بانه من اصحاب النبي (ص) ، وقد استعمله على صدقات بني تميم .

ثم انه كان من اشراف الفرسان ، معدودا من أبطال بني يربوع في الجاهلية واشرافهم ، ومن ارداف الملوك ، وزعيم قومه ، كريم النفس . ولما انتشر خبر موت الرسول ، وحدث الانقسام في صفوف المسلمين بعد اجتماع السقيفة وامتنع عدد من بيعة أبي بكر ، وامتنعوا عن اداء الزكاة الى ابي بكر بصفته خليفة ، اعتقاداً منهم أن نصاً سبق من الرسول الأعظم (ص) قبل وفاته على علي بن أبي طالب بالخلافة من بعده في يوم « غدير خم »[1] ولا يجوز الاجتهاد مقابل النص ، ومن هذا المنطلق قابل مالك بن نويره ابا بكر وقد تسلم مركز الخلافة حينها فقال له :

« أربع على ضلعك ، وألزم قعر بيتك ، وأستغفر لذنبك ، ورد الحق الى اهله ، أما تستحي أن تقوم في مقام أقام الله ورسوله فيه غيرك وما ترك يوم الغدير لاحد حجة ، ولا معذره » .

وهذا التقاعس عن اداء الزكاة للخليفة الاول ، اعتبر ردة من الذين تخلفوا عنه ، وقرر الخليفة محاربتهم على أساس انهم تخلفوا عن دفع زكواتهم اليه ، « وسمى المؤرخون جميع الحروب التي وقعت بعد وفاة الرسول بين جيوش أبي بكر ، وعرب الجزيرة (بالردة) ، كما سموا جميع المخالفين لابي بكر من الذين كانوا خارج المدينة (بالمرتدين) » .

---

١ - راجع حديثنا عن ابي ذر وبريدة بن الخصيب من هذا الكتاب في موضوع الغدير .

ولم يرض بهذا الموقف المتعنت كثير من الصحابة ، واعترضوا على أبي بكر ، وكان منهم عمر بن الخطاب ، ودار بينهما الحوار التالي :

عمر : علام تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله (ص) « أمرت ان أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله ، فاذا قالوها عصموا من دماءهم وأموالهم الا بحقها » .

أبو بكر : والله لو منعوني عناقا - وفي رواية عقالا - كانوا يؤدونه الى رسول الله (ص) لأقاتلنهم على منعها ، ان الزكاة حق المال ، والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . .

وقد جاءته وفود العرب مرتدين يقرون بالصلاة ويمنعون الزكاة ، فلم يقبل ذلك منهم وردهم . .

وارسل ابو بكر خالد بن الوليد بجيش لجمع الزكاة ، وسار بجيشه بعد ان فرغ من فزارة ، وأسد وطيء يريد البطاح - وهو ماء في ديار بني أسد بن خزيمة - وبها مالك بن نويره ، وتخلفت الأنصار عن خالد ، وقالوا :

ما هذا بعهد الخليفة إلينا ، ان الخليفة عهد إلينا إن نحن فرغنا من بذاخة[1] واسبرنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا . فقال

---

(1) [illegible]

خالد : أنا الأمير . . هذا مالك بن نويره بحيالنا ، فأنا قاصد اليه ومن معي .

ودار لغط في الجيش ان أبا بكر قد أوصاهم ان يؤذنوا اذا نزنوا منزلا ، فاذا أذن القوم ، فكفوا عنهم ، وان لم يؤذنوا فقاتلوهم ، وان اجابوا الى داعية الاسلام فسألوهم عن الزكاة ، فان أقروا فاقبلوا منهم ، وان أبوا فقاتلوهم . ولكن خالداً أصر على ان يداهم ديار مالك في ظلام الليل ، وأمر ضرار بن الازور بذلك .

وكان في الجيش ابو قتادة الانصاري ، وهو يتحدث ويقول : ولما داهم جيش خالد القوم راعوهم تحت الليل فاخذوا سلاحهم . فقلنا لهم إنا المسلمون ، فقالوا : ونحن المسلمون . قلنا : فما بال السلاح معكم قالوا لنا : فما بال السلاح معكم ؟ قلنا : فان كنتم كما تقولون فضعوا السلاح . قال : فوضعوها . .

ثم اذن المؤذن ، فاذنوا معنا وصلينا وصلوا . .

وبعد ذلك طلب خالد مالكا ليناظره ، فأتاه ، واتبعته امرأته وكانت فائقة في الجمال ، فأسر قلبه بها . وأدعى خالد أن مالكا قد ارتد فانكر مالك ذلك ، وقال : انا على الاسلام ما غيرت ولا بدلت . وقال خالد : والله ما نلت ما في مثابتك حتى أقتلك .

فقال له مالك : يا خالد أبعثنا إلى أبى بكر فيكون هو الذي

يحكم فينا ، فانك بعثت اليه غيرنا ، ممن جرمه اكبر من جرمنا .

فقال خالد : لا اقالني الله إن أقلتك .

ثم نادى خالد يا ضرار بن الازور أضرب عنقه .

فالتفت مالك الى زوجته ، وقال لخالد : هذه التي قتلتني .

فقال خالد : بل الله قتلك على رجوعك عن الاسلام .

فقال مالك : انا على الاسلام .

فتقدم أبو قتادة الانصاري ، وعبد الله بن عمر فكلما خالدا في امر مالك فكره كلامهما .

ثم أمر ضرار ابن الازور ان يعجل به ، وعيناه مسمرتان بوجه زوجة مالك ، فضرب عنقه ، ولم يكتف بذلك ، بل أمر خالد بالاسارى فجاءوابهم مربطين ، فأمر بقتلهم ، وسبى نسائهم ، ونهب أموالهم .

فاخذ ينادي أبو قتادة ، ماذا تفعل يا خالد ان القوم نادوا بالاسلام وان لهم امانا . ولكن صيحات الصحابي الجليل لم تؤثر في قلب الذي أسر بجمال امرأة فخان اسلامه ، وركب جاهليته الرعناء دون استحياء ، ثم لم يكتف خالد بكل ذلك ، بل عمد الى راس خالد فنصبه أثفية لقدر فنضج ما فيها قبل ان يخلص النار الى شؤون راسه ـ لانه كث الشعر ـ

ثم تهاوى خالد على اشباع رغبته ، واطفاء شهوته ، فقد عمد الى زوجة مالك بعد مقتله بساعة فوطئها ، دون خجل .

فحلف أبو قتادة ان لا يسير تحت لواء خالد في جيش ابدا ، وركب فرسه وجاء لابي بكر يشكوه ، وسرد له الواقعة ، وقال له : نهيته عن ذلك فلم ينتهي .

وسكت أبو معاذ عن الحديث برهة من الوقت ، والمستمعون في وجوم . شغلهم موقف خالد ، ونزواته الجاهلية ، وطال الصمت عليهم ، ثم عاد ابو معاذ الى الحديث ، وقد بدا عليه ذهول وغضب ، وقال :

بالامس ، تبرأ النبي (ص) من خالد حين بلغه موقفه من بني جذيمة وسفكه الدماء المصونة بشرف الاسلام ، وتأثر منه اشد التأثر . انها عصبية الجاهلية . فمن الذي يتبرأ منه في هذا اليوم مما فعله مع مالك ، ومخالفته الصريحة لاصول الاسلام . .

لا بد ان يقف خليفة الرسول منه موقف رسول الله حينما خالف تعاليم الاسلام . ولنرى كيف كان موقف أبى بكر من خالد ، وهو في موضع المسؤولية ؟

بادر أبو قتادة ، وهو المعروف لدى الصحابة بالصدق ، فشهد لدى أبى بكر بموقف خالد من قتل مالك المسلم ، وفعلته

النكراء ، مع زوجته ولم يتحرك الخليفة فغضب عمر بن الخطاب والتفت لابى بكر بشيء من العنف قائلا : يا خليفة رسول الله ان خالدا قتل رجلا مسلما ، ووطىء امرأته من يومها . . ولم يتحرك الخليفة ، فاغلظ عمر في القـول . فاضطـر ابـو بكر لاستدعـاء خالد ، فعاد قافلا . . ودخل المسجد على الخليفة ، وهو يرتدي قباء عليه صدأ الحديد ، معتجراً بعمامة قد غرز فيها أسهما فما ان بصر به عمر حتى قام اليه فانتزع الاسهم من رأسه فحطمها ، ثم صرخ بوجهه قائلا : يا عدو نفسه ، عدوت على أمـريء مسلـم فقتلته ، ونزوت على امرأتـه ، واللـه لارجمنـك باحجـارك . ثم التفت الى أبى بكر ودار بينهما الحوار التالي :

عمر : يا أبا بكر ان خالدا قد زنى فارجمه .

ابو بكر : ما كنت ارجمه فانه تأول فأخطأ .

عمر : فانه قتل مسلماً فأقتله .

أبو بكر : ما كنت أقتله فانه تأول فأخطأ .

عمر : فاعزله

ابو بكر : ما كنت اغمد سيفا سله الله عليهم . . .

وانتهى الحديث فالخليفة مصمم على ان لا يمس خالدا حتى في عتاب ، وسكت عمر ، وتركهما يتناجيان ، وجلس مع ثلـة من الصحابة والغضب قد اخذ منه مأخذه . ان ابا حفص يراها مخالفة

صريحة للاسلام فأي جريمة اكبر من قتل أناس مسلمين بشهادة أبي قتادة الانصاري وعبد الله بن عمر انهم اذنوا وصلوا مع المسلمين حين داهمهم جيش خالد في ديارهم ، فأي ردة تنطبق عليهم ، ثم ان مالكاً وهو الصحابي الجليل قتل ظلما وغدرا ، ونزى القائد الاسلامي على امرأة مسلمة ، زوجة صحابي جليل ، وهي في عدتها ، وبعد فترة من قتل زوجها ولعلها لا تتجاوز الساعات . فأي عذر للخليفة في ذلك فاذا كان أبو بكر قد اعتذر عن خالد بأنه تأول فاخطأ ، ودرأ عنه حد القتل ، والغدر ، والزنا ، بهذه البساطة والسهولة ، فلماذا لم يذهب الخليفة الى هذا الاحتمال ـ وهو على اسوأ الفروض ـ بان مالكاً وجماعته تأولوا فأخطأوا !!

كان الموقف في المدينة يغلي كالمرجل عقب هذه الحادثة وعمر بن الخطاب حين وقف هذا الموقف الحاد مع أبي بكر ، ليرد غضبة المسلمين على خليفتهم من فعلة قائده النكراء . . ولكن أبا بكر مضى قدما في تسديد خطى خالد ضاربا بكل القيم عرض الحائط . .

وجلس عمر في المسجد ، والغضب لا يبارحه ، وخرج خالد من مجلس أبي بكر الخاص ، بعد ان تناجيا طويلا ، فالتفت الى عمر وقد طبع على شفتيه ابتسامة عريضة وقال له : هلم اليّ يا ابن أم شملة .

تقول الرواية فعرف عمر ان أبا بكر راض عن خالد ، فلم يكلمه ، ودخل بيته[1] .

ومع هذا فأبو بكر أمر خالدا ان يتخلى عن أم تميم بنت المنهال زوجة مالك ، وودى مالكا من بيت المال ، كما أمر برد السبي ، واعتذر من متمم بن نويره اخ مالك ، حينما قدم عليه يطالبه بدم أخيه ، ويسأله ان يرد عليهم سبيهم .

واذا كان مالك و اصحابه قد ارتدوا عن الاسلام ، ورضا أبو بكر بقتلهم غدرا ، ولم يحاسب خالدا عن نزوته على زوجة مالك ، على اساس انها زوجة مرتد عن الاسلام ، فيصبح عرضه وماله مباحا للمسلمين ، فكيف جاز له ان يأمر خالدا بتخليه ـ بعد ذلك ـ عن زوجة مالك ، ويأمر برد السبي ، وودى مالكا من بيت مال المسلمين ؟ فهل يجوز صرف مال المسلمين لقضية شخصية ارتكبها خالد بتأثير من نزوة عاطفية ، ورواسب جاهلية ؟

ولم يسلم خالد من عمر بن الخطاب حين تسلم الخلافة ، فقد كان خالد مع أبي عبيدة الجراح في فتح الشام ، يتولى قيادة جيش المسلمين ، ولم تمر على خلافته اربعة ايام حتى عزل خالدا عن قيادة جيش المسلمين المحارب ونكل به . كما انه جمع من عشيرة

---

١ ـ راجع قصة خالد ومالك ومصادرها التاريخية في كتاب « عبد الله بن سبأ » للحجة المحقق السيد مرتضى العسكري : ١/ ١٤٥ ـ ١٥٥/ ط دار الكتب ـ بيروت ١٩٦٨ .

مالك من وجد منهم ، واسترجع ما وجد عند المسلمين من نسائهم ، واولادهم ونسائهم ـ حتى انه قيل : ارتجع بعض نسائهم من نواحي دمشق ، وبعضهن حوامل فردهن الى أزواجهن .

كما روى ان متمم بن نويره دخل على عمر بن الخطاب ـ في خلافته ـ فقال له عمر : ما بلغ وجدك على أخيك مالك ؟

قال : بكيته حولا حتى أسعدت عيني الذاهبة عين الصحيحة ، وما رأيت نارا الا كدت انقطع لها أسفا عليه ، لانه كان يوقد ناره الى الصبح ، مخافة ان يأتيه ضيف ، فلا يعرف مكانه . .

فترحم عليه عمر . .

ولكننا لو تساءلنا عن حجة مالك واصحابه في عدم دفعهم الزكاة للخليفة نرى ـ كما تحدثنا المصادر ـ انهم فسروا الآية الكريمة : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، وتزكيهم بها ، وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم »[1] .

بانها تتضمن ضرورة صلاة النبي عليهم صلاة تكون سكنا لهم ، وليأخذ صدقة من أموالهم يزكيهم بها ـ وتلك الصفات ،

---

١ ـ سورة التوبة : ١٠٣ .

برأيهم لا تتحقق في غير النبي لان غير النبي - بنظرهم - لا يطهر الناس ، ولا يزكيهم بأخذ الصدقة منهم ، ولا تكون صلاته سكنا لهم - أي أنهم بعبارة اخرى : ترددوا في إعطاء الزكاة الى غير النبي الى ان يثبت لهم وجود من يمثله ، وهو أمر دون شك لا يعني عدم اعترافهم بالزكاة - كأساس من أسس الدين - وهم لم يجحدوا وجوبها ولكنهم قالوا : بوجوبها مشروطة . وهذا واضح بانهم تأولوا ، وربما اخطأوا[1] .

« والتردد غير الامتناع ، لانه يتضمن التريث والاحجام ، وهي فترة وسطى بين الامتناع والانصياع ، فاذا حصل الامتناع ، فانه - مع ذلك - لا يجوز قتاله برأينا ، الا اذا كان الامتناع مشروطا لا مطلقا - أي ان يكون حصوله نتيجة الانتقاض على العقيدة الاسلامية » .

وقال أبو معاذ في ختام حديثه - والليل قد دنا من اخرياته - :

ولست أنزه خالدا عن الخطأ ، واعلم انه كان جباراً فاتكاً ، لا يراقب الدين فيما يحمله الغضب ، وهوى نفسه . . ولكن الذي اثار العجب في نفسي ان الخليفة أبا بكر لماذا لم يحمل مالكا واصحابه - في امتناعهم عن دفع الزكاة - بانهم تأولوا فأخطأوا وهم

---

١ - يراجع مفصل النقاش في موضوع خالد شرح النهج لابن ابي الحديد : ٧/ ٢٠٢ - ٢١٤/ ط دار احياء الكتب القاهرة ١٩٦٣ .

لم يخالفوا ضروريأ من ضروريات الاسلام كما أول فعل خالد وهو قد خالف احكام الاسلام من الغدر بالمسلمين وقتلهم ، ووطىء اعراضهم ، ومع هذا قال الخليفة فيه : تأول فاخطأ ، وتجاوز عنه فاذا كان ذلك بدافع الرأفة والشفقة على خالد ، لكن ذلك التجاوز قد حصل على حساب اقامة الحدود الدينية وتعطيلها عن خالد ، وبالنهاية تجاوز على احكام الاسلام ، وتعطيل حدوده .

ورحم الله أبا قتادة الانصاري ، فانه حلف ان لا يسير تحت لواء خالد في جيش ابداً .

والى هنا فقد بدء الفجر ينثر ظفائره الحلوة ، فسكت ابو معاذ عن الكلام .

حارث بن النعمان بن نفع الأنصاري

والتمّ شمل سمار الشيخ أبو معاذ ـ كعادته ـ ليسمع من حديث الماضين ما يكشف لهم الوقائع الحاسمة في تاريخ العقيدة . وبدأ الشيخ حديثه ، وهو يستعرض وجوه سماره ، وكأنه يستوحي منها حديث الاباء والأجداد وقال :

ولما أتم الله فتح مكة لرسوله ، وخضعت له قبائلها ودانت بطاعته فقد ملكها بالخلق الاسلامي ، اذ سائلهم ـ وهم في قبضته ، وتحت سلطانه ـ « يا معشر قريش ، ما ترون اني فاعل فيكم » ؟ قالوا : خيراً أخ كريم ، وابن أخ كريم ! . قال : « فاذهبوا فانتم الطلقاء » .

وقريش عانى منها الرسول ما لو وضع فيها السيف ، وآبادهم عن بكرة أبيهم لما عاتبه فيهم أحد . لكن محمدا نبي الرحمة ، ومثال الانسانية ، لم يعرف الثأر في نفسه مكانا ، ولا للعصبية في ذهنه حساب ، فقد سمت نفسه فوق الاحقاد والضغائن ، ومحى

من ذهنه كل ما يدعـو للانتقـام يكفيه ان يرى جبابـرة قريش ، وطواغيث الباطـل اذلاء بـين يديه ، وعيونهـم مشـدودة لشـفتيه الكريمتين ، ينتظرون ماذا يقول عنهـم . فالموت والحياة في هذه اللحظة ملك . غير انه يعفو عنهم ، ويصفح عن ماضيهم السيء . .

وعزم محمد (ص) على العودة الى المدينة ، فان أصحابه بدءوا يتخوفون بأنه ما ان يستقر رسول الله بمكة ، ويترك البلد الذي احتضنه بكل رحابة صدر ، وتحمل انواع الضيم طيلة ما هو فيه مقيم من يوم هجرته اليه ، وحتى فتحت له مكة . لكن الرسول غير ما يتوجسون منه .

فقد أعلن الرسول نبأ رحلة العـودة الى مدينتـه ، ولن يتخلى عنها ، وانكشفت أسارير الذين خامرهم الظن بان مجد المدينة ـ بعد فتح مكة ـ أخذ بالافول ، وانحسرت عنهـا زهـوة الايام ، وجذوة الشروق .

وهم في هذا الجو من الاستعـداد للعـودة الى المدينـة ، أقبـل الحارث بن النعمان الانصاري وهو من الصحابة الاجلاء ، وكان عيناً للنبي بعد الفتح في خارج مكة ، واخبره ان هوازن ، وهي على مقربة من مكة وفي جبال تربض على الجنـوب الشرقي منها قد تجمعت واستعدت بقوة هائلة للانقضـاض على جيش المسلمـين

وصده عن غزو بلادهم وهي بقيادة مالك بن عوف وقد تجمعت الحشود ، حتى بلغت ـ حسبما وصل بها المؤرخون ـ الى ثلاثين الف محارب ، ونزلت بسهل أوطاس في وادي حنين .

وأعلن الرسول عن عزمه لمقابلة هوازن ، وأمر بالاستعداد لهم ، ولم يمر عليه زمان ، حتى بلغ جيش المسلمين اثني عشر الف مقاتل ، عشرة الاف جيش النبي الذي جاء به من المدينة لفتح مكة والفان ممن أسلم من قريش .

وسار جيش المسلمين ، الذي لم تعرف بلاد العرب مثله من قبل ، يتقدم كل قبيلة علمها ، وقد امتلأت النفوس أعجابا بهذه الكثرة ، تلمع دروعهم ، وتلهث سيوفهم ، وبدا على البعض منهم الغرور ، وقال أبو بكر ـ كما في بعض الروايات ـ لا نغلب اليوم من قلة . فكره النبي هذا القول ، لانه يدل على غرور . .

وأقبل المساء وجيش المسلمين على أبواب وادي حنين . فقضى ليلته هناك ، واستغل العدو الفرصة ، فكمنوا هم في شعابه وأحنائه ومضايقه . وما ان بدا خيط الفجر حتى تحرك المسلمون في مضيق الوادي . . يقول الراوي : فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وأصلوهم وابلا من النبال ، فأنهزم المسلمون عن رسول الله (ص) لا يلوي أحد منهم على أحد ، قد أخذ الفزع والخوف منهم مأخذه .

وانحاز رسول الله (ص) الى جانب من المعركة ، ولم يثبت معه إلا نفر من أهل بيته ، في مقدمتهم علي بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث ، والفضل بن العباس ، ومن اصحابه أسامة بن زيد بن حارثة ، وأيمن بن أم أيمن ، وذكر ان الحارث بن النعمان ممن ثبت مع رسول الله في ذلك اليوم ، وعبد الله بن مسعود .

كان الموقف قاسيا الى درجة على رسول الله ، فقد تجمعت عليه النائبة : من اصحابه الذين ولّوا الادبار منهزمين ، قد اثقلهم الجبن والضعف . ومن جفاة مكة ، وهم يشمتون به ، ويسعدون عيونهم بما يرون من ذل هزيمة الجيش الذي جاء بالامس لمحاربتهم ، وارغامهم لقبول الاسلام . وقف ابو سفيان وقد طبع على شفتيه أبتسامة الفرح والشماتة ، وصاح في قومه الذين يحفون به ـ وقد لعبت به حمية الجاهلية ، واحقاد بدر وأحد ، وفتح مكة ـ : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وان السهام لمعه في كنانته .

وقال كلدة بن حنبل ـ وهو مع اخيه صفوان بن أمية ـ ألا بطل السحر اليوم . ودارت برأس شيبة بن عثمان بن ابي طلحة ـ أخو بني عبد الدار ـ ثارات أحد ـ فقد قتل أبوه في أحد ـ وصمم على

قتل رسول الله ، وكلما حاول ان يصل الى محمد لم يتمكن ، فقد طوقه علي وبقية بني هاشم ، يدافعون عنه .

وكان يحز في نفس النبي وهو يرى المسلمين يفرون فيصيح بهم « الى أين أيها الناس ؟ » وهم لا يلوون على شيء . . فالتفت النبي للعباس ، وقال له : نادي المسلمين : يا اهل بيعة الرضوان ، يا أصحاب سورة البقرة ، يا أهل بيعة الشجرة الى أين تفرون عن رسول الله .

وكان العباس جهوري الصوت ، فاخذ ينادي في الناس ، فرددت الاصوات : لبيك ، لبيك .

تقول الرواية : وتجاوب عدد من المسلمين ، حتى ان الواحد منهم يحاول ان يثني بعيره ، فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه ، فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويخلي سبيل بعيره ، ويؤم الصوت ، وينتهي الى رسول الله (ص) ، حتى اذا اجتمع اليه منهم مائة ، استقبلوا هوازن ، واقتتلوا معهم ، وكانوا صُبُراً عند الحرب ، واشرف رسول الله (ص) على المعركة وقد أشتبكت السيوف ، وهم يجتلدون ، فقال : الان حمى الوطيس . ورمق السماء بطرف عينين مثقلتين بالهموم ، ودعا به بالفرج .

ثم التفت الى علي وهو يخوض غمار الحرب، ولن يبتعد عنه : يا علي دونك جرول وهو حامل راية هوازن ، وكان يصنع بالمسلمين

ما يصنع ـ على حد بعض الرواة ـ .

وشق علي صفوف الجيش الملتحم ، وادرك جرول ، وهو يتقدم نحو جيش المسلمين ، فيتحاماه الناس ، ومن خلفه جموع من هوازن وحلفائها تقاتل بعنف . فقابله علي بن ابي طالب ، وهز في وجه سيفه ، وهوى عليه فوقع على مؤخره ، وانتكست راية الاعداء ، فاضطرب الجيش المعادي . فسار علي ومن التف به قُدما في مجابهتهم ، حتى بدا على المشركين الضعف ودب الذعر فيهم ، والخوف في صفوفهم ، فلاذوا بالهزيمة ، والفرار . وانكشفت المعركة ـ والشمس بعد لم تمل للزوال ـ عن انتصار المسلمين . .

وتقول الرواية : فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الاسارى مكتفين عند رسول الله (ص) .

ونزلت الآية الكريمة : ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الارض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين ، وانزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين » .

ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين . . وفعلا كان ذلك فأولئك الذين ولوا الادبار وهم لا يلوون على شيء ، أما

المؤمنون فهو علي بن ابي طالب ومن ثبت معه من بني هاشم ، وبعض الصحابة . هؤلاء الذين باعوا نفوسهم بالله رخيصة ، فأثابهم مجدا لا يضاهى ، وجزاهم جزاء الصابرين .

وواكب رسول الله سيره بجيشه الذي اعاد بنائه يتبع فلول هوازن هنا وهناك ، وقد أبقى الغنائم والاسرى الى ما بعد الحرب ، ليبحثوا عن مالك بن عوف ، وهو مع فلول جيشه المنكسر قد احتمى بالطائف ـ لانها مدينة محصنة ، تغلق عليها الابواب ، واهلها لهم دراية تامة بالحرب ـ ولكن هذا كله لم يقف حائلا امام عزم النبي في اجتثاث اثار المشركين . . .

فالى الطائف .

وعلى مقربة من الطائف عسكر المسلمون ، واجتمعوا ليفكروا في الامر ، ويخططوا لفتح هذه المدينة ، واجتياح حصونها ، فلم يكن من اليسير ان يقتحم المسلمون هذه الحصون المنيعة ، ولا بد لهم من تخطيط :

ووضعت خطتان لاجتياح الطائف : الاولى : مهاجمة الحصون بالمجانيق . والثانية : الزحف عليها بالدبابات .

لم يكن علم الرماية بالمنجنيق معروفا عند العرب ذاك ، وقيل : ان سلمان الفارسي هو الذي أشار على قادة المسلمين

باستعمال هذه الطريقة لاقتحام حصن الطائف . فصوره لهم وصنعوه ، وقذفوا به الصخور الى ما وراء الحصون . ولكن حصن الطائف كان أقوى من أن يتأثر بذلك ، كما انه لم يدخل الرعب في نفوسهم[1] .

وعمد المسلمون الى الهجوم بالدبابات[2] على الطائف ، ويصفها الرواة : بانها آلة يدخلون في جوفها تقي المقاتلين من النبل والسيوف . وزحفوا بها الى جدار الطائف ليخرقوه . لكن رجال الطائف كانوا من المهارة بحيث اكرهوا المقاتلين المسلمين على الفرار ، فقد احمت قطعا من الحديد بالنار حتى اذا انصهرت ألقته على الدبابات فحرقتها . وفر المسلمون من تحتها خوفا من الحريق . فرمتهم ثقيف بالنبال فقتلت جماعة منهم .

لم تفلح الطريقتان في اقتحام حصن الطائف ، وكان عليهم ان يفكروا بطريقة اخرى ، تلك هي أبادة مزارع كروم الطائف ، والاشجار المثمرة ، وهي وسيلة قد تؤثر بأهالي البلد ، فعندما يرون املاكهم قد تعرضت للخطر ، ورغم ان هذه الوسيلة قد هزت ثقيف ، ولكنها لم تخضعهم للاستسلام ، انما بعثوا الى

---

١ ـ قال ابن نقشام في سيرته : ٢/ ٤٨٣/ ط البابي القاهرة ١٩٥٥ : ان رسول الله اول من رمى في الاسلام بالمنجنيق اهل الطائف .

٢ ـ ذكر ابن نقشام اسم الدبابة في سيرته : ٢/ ٤٨٣

النبي (ص) يناشدونه ان يكف عنها ، أو يأخذها لنفسه ، فأمر اصحابه بأن يكفوا عنها .

وكان شهر ذي القعدة على أبواب الاستهلال وهو من أشهر الحرم ، وتعطل فيه الحروب ، ويقف خلاله القتال ، وما جدوى البقاء مدة أشهر الحرم محاصراً الطائف ، وقد بدى على جيشه رهق الكر والفر . لذا آثر ان يرفع الحصار عن الطائف موقتا ويعود اليها بعد الاشهر الحرام بعدة كاملة ، واستعداد فيه أمل الفتح .

كانت وجهة النبي مكة ، ومنها الى المدينة ، ولا بد له من المرور على « حجرانة » فقد أبقى فيها الاسارى ، والغنائم من هوازن ، والتي بلغت ـ على حد رأي بعض المصادر التاريخية ـ : ستة آلاف أسير ، واحصوا الغنائم فكانت أثنين وعشرين الفا من الابل ، واربعين الفا من الشياه ، وغير ذلك من الفضة والامتعة .

ورجال هوازن في حرج كبير مع النبي (ص) ، فلو كانت الغنائم التي وقعت بيد النبي اموالا فقط لكان بالامكان ان يتجاهلوها ، ويتناسوها ولكن الموضوع ، أهم من ذلك ، لقد وقع في الاسر منهم قرابة ستة آلاف ومعظمهم من النساء والاطفال . وان قسما من الذين التحقوا بجيش المسلمين من أهل مكة انما همهم الغنيمة والسلب .

ولعلنا نستطيع ان نتلمس هذا الواقع جيداً من حوار دار بين شخصين من مكة كانا في جيش المسلمين في هذه المعركة :

ذكر المؤرخون : ان خويلة بن حكيم بن أمية بن حارثة بن الاوقص السلمية ، وهي أمرأة عثمان ، قالت : يا رسول الله ، أعطني ان فتح الله عليك الطائف حُلى بادية بنت غيلان بن مظعون بن سلمة : أو حُلى الفارعة بنت عقيل ، وكانتا من أحلى نساء ثقيف .

فقال لها رسول الله : وان كان لم يؤذن لي في ثقيف يا خويلة ؟ فخرجت خُويلة ، فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب . فدخل على رسول الله (ص) ، فقال له : يا رسول الله : ما حديث حدثتنيه خويلة ، زعمت أنك قلته ؟ قال : قد قلته . قال عمر : أوما أذن لك فيهم يا رسول الله ؟ ، قال : لا . قال عمر : أفلا أؤذن بالرحيل ؟ ، قال : بلى فأذن عمر بالرحيل .

فلما استقل الناس نادى سعيد بن عبيد : ألا إن الحي مقيم ، فقال عُيينه بن حصن : أجل ، والله مجَدَةً كِراما ، فقال له رجل من المسلمين : قاتلك الله يا عيينة ، أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله (ص) ، وقد جئت تنصر رسول الله . فقال عُيينة : والله ما جئت لأقاتل ثقيفا معكم ، ولكني أردت ان يفتح محمد الطائف ، فأصيب من ثقيف جارية أطأها ، لعلها تلد لي رجلا ،

فان ثقيفا قوم مناكيد ـ أي ذوي دهاء وفطنة » ـ.

على هذه الشاكلة كان عدد كبير في جيش رسول الله ، همهم أن يصيبوا مغنما ، ويكسبوا مالا . . ولعل شماتة أبي سفيان ، وكلدة بن حنبل عندما دارت الدائرة على جيش رسول الله غير بعيدة عن أذهاننا ، فهي تؤكد ان هذه الشراذم من الناس لم تدخل الاسلام الا من أجل ان تحفظ نفسها من القتل ، وتكسب مغنما عند الحرب .

ولهذا نرى هوازن تهتم أشد الاهتمام في هذا الامر خاصة وانها لمست من رسول الله (ص) عطفا وكرماً غير متصورين حينما اتته الشيماء بنت الحارث اخته من الرضاعة ، فقالت له : يا رسول الله اني أختك من الرضاعة ، فعرفها النبي وبسط لها رداءه فاجلسها عليه ، وخيرها بين ان تقيم عنده محببة مكرمة ، أو تعود الى قومها . فقالت له : بل تمتعني وتردني الى قومي فمتعها رسول الله (ص) ، وردها الى قومها معززة الجانب مكرمة الحال . هكذا كان رسول الله . من جميل صفاته عرفان الجميل ، ومن أبرز خصاله العفو عند المقدرة . فهو رسول الانسانية ، بعث ليتمم مكارم الاخلاق وينشرها بين الامة .

كانت هوازن على حق حينما فكرت ان تقصد النبي (ص) ويطلبون منه نسائهم وأولادهم ، وهم على ثقة ان قلب محمد

يتسع لمثل هذا الطلب فلم تكن هوازن عليه باكثر من قريش بلاء ومحنة ، ومع هذا ، فانه عندما ظفر بهم ، أطلقهم مكرمين .

لنسمع الراوي يحدثنا بذلك ، فيقول :

ان وفد هوازن اتوا رسول الله (ص) وقد اسلموا . وقالوا : يا رسول الله ، إنا أهل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فأمنن علينا مَنّ الله عليك ، قال : وقام رجل من هوزان يكنى اباصر فقال : يا رسول الله إنما في الحضائر عماتك ، وخالاتك ، وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ، ولو انا ارضعنا الحارث بن ابي شمر ـ ملك الشام ـ او النعمان بن المنذر ـ ملك العراق ـ ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به ، رجونا عطفه ، وعائدته علينا ، وانت خير المكفولين .

فقال رسول الله لهم : ابناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم اموالكم ؟ فقالوا : يا رسول الله خيرتنا بين اموالنا واحسابنا ، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب الينا . فقال لهم : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، واذا ما أنا صليت الظهر بالناس ، فقوموا وقولوا : إنا نستشفع برسول الله الى المسلمين ، وبالمسلمين الى رسول الله في أبنائنا ونسائنا ، فساعطيكم عند ذلك ، وأسأل لكم .

فلما صلى رسول الله (ص) : بالناس الظهر ، قاموا فتكلموا

بالذي امرهم به . فقال رسول الله (ص) : واما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله . وقالت الانصار : ما كان لنا فهو لرسول الله (ص) .

فقال الاقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم ، فلا .

وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا .

وقال عباس بن مرداس : اما انا وبنو سليم فلا . لكن بني سليم خالفته ، وقالت : ما كان لنا فهو لرسول الله . فقال عباس لهم : وهنتموني فقالوا له : خير من ان نرد رسول الله .

قال رسول الله (ص) : اما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض ، من أول سبي أصيبه ، فردوا الى الناس أبناءهم ونساءهم .

وبهذه العملية الانسانية طابت نفوس هوازن ، وتهافتت على الرسول تعلن اسلام من تبقى منهم ، ولم يسلموا .

وقبل ان تنكفئ فلول هوازن عائدة الى ديارها وهي مستبشرة بعودة نسائهم وابنائهم لهم . تقول بلهجة واثقة : انها مكرمة ورب الكعبة ، لم يسبق احد محمدا بهذه المكرمة انه نبل لا يرقى اليه نبل . هذه صفات النبوة ومكارم النفوس الرفيعة ، التي سمت عن كل ما يشينها .

حتى مالك بن عوف قائد جيش هوازن ، ومخطط الدمار لجيش المسلمين ، كان له حساب عند رسول الله . فقد استفسر عنه ، فقالوا له انه معتصم بالطائف مع ثلة من اصحابه . فقال لو اتى مالك مسلما رددت عليه اهله وماله ، واعطيته مائة من الابل .

لم يصدق السامعون من هوازن هذا القول ولكن محمدا قائلها ، وللكلمة شرف في حسابه ، لن يعدل عنها مهما كلفه الحال ، ولا يقولها الا بعد ان يقومها ويزنها ، فتخرج لا كسائر كلمات الناس .

وبلغ القول اسماع مالك بن عوف ، ومنعته ثقيف خشية ان يكون في الامر مكيدة ، غير ان مالكاً مع انه حارب محمداً الا انه يعلم جيدا ان للكلمة شرفا عند رسول الله (ص) ، فلماذا لم يذهب اليه ، ويرفع اليه راية السلام وهو واثق من صدق محمد ، أليس هو عند العرب عامة معروف بالصادق الامين .

خرج مالك متخفيا ، لم يخبر ثقيف بأمره ، ولحق بموكب الرسول وهو في جعرانة ، أو بمكة ، ودخل عليه وهو يعلن اسلامه ، فرد عليه اهله وماله ومائة من الابل التي وعده بها . ثم اكرمه بزعامة من اسلم من قومه ، والقبائل المحالفة لها .

لم يكن هذا الخلق مفتعلا عند رسول الله ، ولا متصنعا انما هو طبيعي لمحمد كصفاء السماء ، ونقاء النجوم ، ولطف العطر

وقد اثار هذا السخاء ، وهذه السجية من رسول الله الكثير من المتفعين والمرتزقة الذين يخشون ان تذهب اتعابهم في الركض وراء موكب الرسول ادراج الرياح ، ولم يظفروا بمكسب يطفي جشعهم وطمعهم . . ودب همس ثم اصبح لغط يدور على الالسنة إن رسول الله سيهب الغنائم لمن يفد عليه من العرب مسلما ولم يبقى لهم منها شيئا . وتطور الامر رويداً رويداً حتى تدافعوا نحوه يسمعونه ما يدور في نفوسهم . وتأثر من هذا الموقف اللاخلاقي ووقف فيهم خاطبا قائلا :

« ايها الناس ، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ، ثم ما ألقيتموني بخيلا ، ولا جبانا ، ولا كذابا » .

ثم قام الى جانب بعيره ، واخذ وبرة من سنامه فجعلها بين اصبعيه ثم رفعها ، وقال :

« ايها الناس : والله مالي من فيئكم ، ولا هذه الوبرة الا الخمس ، والخمس مردود عليكم .

فمن اخذ شيئا في غير عدل ، ولو كان إبرةً كان على اهله عارا ونارا وشنارا الى يوم القيامة » .

ثم انه خمس الغنيمة ، واعطى من خمسه الى الذين كانوا إلى ايام مضت أشد الناس عداوة له نصيبا على نصيبهم ، وكان منهم أبو سفيان وابنه معاوية ، وامثالهما من دخل في الاسلام بعد فتح مكة

كرها ، من أجل ان يملاء نفوسهم بالعطاء فيحسنوا موقفهم من الاسلام والمسلمين ، واسماهم « المؤلفة قلوبهم » .

وهذا الموقف السخي من النبي نحو المؤلفة قلوبهم اثار عدداً من الانصار ، لانهم لم يتعقلوا ان النبي يعطي لأبي سفيان وابنه معاوية ، وعكرمة بن ابي جهل ، وامثال هؤلاء كلا منهم مائة او خمسين من الابل ، وهم يبطنون الشرك ويظهرون الاسلام . ثم يقع شيء من الحرمان على بعضهم ، وهذا ما دفع ببعضهم لان يقول ليست هذه القسمة بعادلة . وآخر يقول : لقد لقي محمد قومه ، وما يصنع بنا بعد ذلك . . الى غير ذلك من الاحاديث القاسية والكلمات الجارحة ، والتي تدل بوضوح على عدم ارتياح أغلب الانصار على توزيع الغنائم بالاسلوب الذي كان من جرائه ان يحظى ابو سفيان واضرابه بعدد أوفر من غيرهم .

وكان من الطبيعي ان يأتي سعد بن عبادة ، والحارث بن النعمان فيخبراه بموقف الانصار ، وما دار في نفوس بعضهم . وطلب النبي ان يجمعا الانصار ، وأطل النبي عليهم ، ومعه علي ، وبلغ الخبر بعض المهاجرين فجاءوا ليسمعوا الخبر . ولكن النبي ردهم ، وطلب ان يخلى بينه وبين الانصار عدا علي بن أبي طالب ، فانه بمنزلة هارون من موسى ، ولم يكتم عنه شيئا . وإنه من الدعوة القلب النابض لها ، فله ان يسمع معه شكاة الانصار ،

ويعالج معه الموقف بما تملي عليه حنكته ودرايته . . وبكل لطف خاطبهم :

رسول الله : « يا معشر الانصار ، ما مقالة بلغتني عنكم ، وجدةوجدتموهاعليّ في انفسكم ؟ ، ألم آتِكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة فغناكم الله ، وأعداء فالف الله بين قلوبكم » .

قال الانصار : بلى ، الله ورسوله أمن ، وأفضل .

قال النبي : « الا تجيبونني يا معشر الانصار » .

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المنُ والفضل .

قال (ص) : « أما والله لوشئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصُدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فأويناك ، وعائلا فآسيناك أوجدتم يا معشر الانصار في انفسكم في أُعاعة (بقلة خضراء ناعمة ، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها) من الدينا تألّفتُ بها قوما ليُسلِموا ، ووكلتكم الى إسلامكم ، الا ترضون يا معشر الانصار ، ان يذهب الناس بالشاه والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم . فو الذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الانصار . ولو سلك الناس شعبا ، وسلكت الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار . اللهم أرحم الانصار ، وابناء الانصار ، وابناء ابناء الانصار » .

فبكى الانصار كثيرا ، ثم قالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا . .

وهكذا انتهت الازمة التي سيطرت على انصار رسول الله ، عند تقسيم غنائم هوازن .

وعاد رسول الله الى مكة معتمرا ، فلما قضى فيها مناسكه ، أمر اصحابه بالرحيل الى المدينة حافلا بالانتصارات الرائعة التي واتته في سفرته هذه ، وما كان لها من اثر بليغ في نفوس العرب وقادتهم الذين كان الحقد يسيطر عليهم الى درجة كبيرة ، وما كانوا يتصورون ان تضطرهم الايام للخضوع لمحمد والاقرار له بالطاعة .

ويعود الحارث بن النعمان مع العائدين الى المدينة ، ويستقبلهم المسلمون ، وعلى عيونهم ترقص دموع الفرح ، والاستبشار فان الله سبحانه قد كللهم بالنصر ، ففتح لهم مكة ، واذعنت لهم الجبابرة بالولاء .

حذيفة بن اليمان العبسي

وتجمع السمار ، والليل قد مضى منه شطر ، وانوار القمر تلهث مجهدة فقد أتعبها ليل الصيف القائظ ، وأبو معاذ كعادته ، يستعد للحديث ، يجمع شتات أفكاره ، يلمّ حوادث الايام ، ليصوغها سلسلة يطوق بها جيد ليلته هذه . ولم يطل به التفكير ، فقد بدأ في الحديث ، وانشدت اليه الاذان سامعة صاغية ، وارتبطت به النفوس حباً وحناناً . .

وبدأ في الحديث قائلا :

لقد كان لفتح مكة اثره الكبير في أندفاع الناس في الجزيرة لاعلان اسلامهم ، فالذين كانو يحسبون لقريش حسابهم في مقابلة رسول الله ودعوته ، فقد تهاوى الحساب على اعتاب النصر الذي حققه الله للاسلام بفتح مكة ، ونصر المسلمين على رسول الله .

والذين راهنوا على أبي سفيان وبطانته بأنه القوة التي ينهار

امامها محمد وأصحابه في يوم ما ، فقد خسروا الرهان ، وخابت الآمال فمحمد يزداد صعوداً وعدوه هبوطاً . . هذه مكة بجبروتها . وشموخها الوثني . فتحت أبوابها خاصعة طائعة لفتى هاشم ويتيم عبد المطلب ، وهو يحطم شموخها ، ويسحق جبروتها .

وهذه قريش وسطوتها تضاءلت امام جيش محمد ، كأنها قزم يلم عاره ويخفي ذله .

وبقيت المدينة المنورة بعد فتح مكة ، تستقبل وفود العرب من هنا وهناك تشهر أسلامها ، وتعلن طاعتها لمحمد (ص) . . لقد دانت القبائل المتاخمة لمكة والمدينة للاسلام ، وخضعت لدعوة محمد ان سلما وان حربا .

وقد شق هذا النصر على يهود المدينة وبطانتهم المرتزقة ، أمثال المنافقين الذين أظهروا الاسلام ، وبطنوا له البغض والمكر . . واليهود من يومهم الاول لم يضمروا للمسلمين خيراً ، ولم يعرفوا للاسلام حرمة فان الخوف أضطرهم أن يتعاونوا مع المسلمين ، وان يظهروا لهم الطاعة . . فذكرى خيبر وما شابه خيبر من مواقف دكت معنويات اليهود ، وهدمت حصونهم .

واليهود لا يهمهم الا مصالحهم ، فهم يتعاونون مع الشيطان من أجل محاربة المسلمين ، لقد نكبوا ، واندكت معاقلهم ، ولم

يبق لهم الا سبيل واحد عسى ان يكون فيه ما يحقق آمالهم ، عليهم ان يحركوا الروم على المسلمين ، ليغزوهم في عقر دارهم . ويشتتوا شملهم . . ولا عليهم الا ان يحسّنوا الامر لملك الروم . . وفعلا اتصلوا به سراً ، وحملوه على اعلان الحرب على الاسلام .

ويترامى الخبر الى اسماع رسول الله « بان ملك الروم في دمشق قد هيأ جيشاً كبيراً لغزو العرب في شبه الجزيرة ، وأعد العدة للقضاء على محمد واتباعه الذين أصبحوا يهددون المناطق المتاخمة لحدود الحجاز » .

وقرر النبي (ص) مواجهة الغازين بالقوة ، وهو أمر ليس بالسهل اذ لا بد ان يعتمد على امرين هامين تهيئة العدة والعدد . فالجيش الذي يقابله هذه المرة يختلف عن سابقه ، انه جيش نظامي لاكبر دولة حينذاك . . وقد حارب النبي طيلة الحروب التي مرت قبائل وجيوش غير نظامية . ولا بد ان يضع خطة مدروسة لهذه الحرب ، وما يحفها من مشاكل داخلية وخارجية ويمكن ان تجمل بما يلي :

١ ـ تهيئة المال الكافي لتجهيز المؤن والعتاد الذي تتطلبه مثل هذه الحرب . ومن أجل توفير هذا الجانب . دعا رسول الله المسلمين للمساهمة في هذا الامر ، واندفع الكثير من أصحاب الثروة والمال الى التبرع السخي في هذا الصدد ، ولم يقتصر التبرع

على الرجال فقد ذكرت بعض الروايات بأن للنساء كان في هذا المضمار النصيب الأكبر ، فلما ان سمعن بأن رسول الله (ص) يدعو اصحابه للمساهمة في هذا الامر ، حتى اخذت الحمية فيمن ماخذها فهرعن الى رسول الله ، ينزعن ما عليهن من الحلي والحلل ، ويقدمنه الى الرسول مساهمة منهن في الجهاد .

وتقول الرواية عن أم سنان الاسلمية :

« لقد رأيت ثوباً مبسوطاً بين يدي رسول الله (ص) فيه مسك ، ومعاضد ، وخلاخل ، واقرطة ، وخواتيم ، مما يبعث به النساء يغني به المسلمين في جهازهم . والناس في عسرة شديدة » .

وتقول الرواية :

« ورغب أهل الغنى في الخير والمعروف ، واحتسبوا في ذلك الخير ، وقوّوا أناس دون هؤلاء مَن هو أضعف منهم ، حتى ان الرجل ليأتي بالبعير الى الرجل والرجلين ، فيقول : هذا البعير بينكما تتعاقبانه ، ويأتي الرجل بالنفقة فيعطيها بعض من يخرج » .

هكذا اندفع الناس في توفير المال ، والعتاد لتجهيز جيش المسلمين ، رغم أن ذلك العام سمي « بعام العسرة » أي الشدة والجفاف .

٢ ـ تجيش الناس للحرب . وكان الوقت صيفاً قائظاً ، والشمس لاهبة حارقة لا تساعد على الحركة ، والعسرة والحاجة تلف الناس وتثبط فيهم العزيمة ، وتفتت هممهم . خاصة وان الحرب الذي عزم عليها رسول الله طويلة المدى ، بعيدة الشوط ، وعرة الطريق ، كثيرة المتاعب ، انها الحرب مع الروم ، والوصول الى بلادهم في الشام ليس يسيراً ، لكن الارادة القوية لا بد ان تذوّب المستحيل . ورسول الله (ص) صمم على أمر ، ولم يتردد في تنفيذه . لقد قرر ان يواجه الجيش الغازي . . . مهما كانت قوته . وطلب من القبائل الاستعداد للحرب ، والتهيؤ باكبر جيش يقابل به جيش الروم .

واستقبل المخلصون من المسلمين لهذا الامر ،ـ رغم ما فيه من الصعاب ـ بكل ترحاب ايمانا منهم بأن الجندي الصادق لا بد له من امتثال الاوامر وتنفيذها .

وانهال الناس من كل صوب للانخراط في جيش محمد (ص) ، انه الايمان بالدعوة ، فاذا عمرت القلوب بالدعوة، بذل الغالي والرخيص في سبيلها . . انها دعوة رسول الله الى حرب الروم و الجهاد على اعداء الله . والنفوس المطمئنة بما وعد الله لا يقف امامها شبح الموت ، ورغم ما في هذه الدعوة من هجر الابناء ، والنساء ، وترك الاموال في عز القيظ ، وجفاف الصحراء

اللاهبة ، ورهق الطريق . والمؤمن في عقيدته لم يمنعه من اداء رسالته أي مانع .

تقول الرواية : « ان رسول الله (ص) أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم وذلك في زمان من عسرة الناس ، وشدة من الحر ، وجدب من البلاد . والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه .

وكان رسول الله (ص) قلما يخرج في غزوة الاكنى عنها ، واخبر انه يريد غير الوجه الذي يقصد له ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فانه بيّنها للناس ، لبعد الشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذي يصد له . ليتأهب الناس لذلك أهبته . . » .

يقول حذيفة بن اليمان : ورغم هذه الاسباب المثبطة فقد تهافت الناس للمشاركة في هذا الجهاد ، حتى ان نفراً من المسلمين أتوا الى النبي (ص) وهم من الفقراء الذين لا يملكون الراحلة، فطلبوا منه أن يهيء لهم ما يمكنهم من الخروج معه فاعتذر اليهم ، وقال : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا عنه ، وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما يمكنهم من المشاركة في الجهاد فسماهم الناس بـ « البكائين » .

وخرجوا من مسجد النبي ، وقد اجهشوا بالبكاء ، فاستقبلهم المسلمون يستفسرون عن سبب بكائهم ، فلما وقفوا منهم على

جلية الامر ، جمعوا لهم زاداً وعتاداً بما يساعدهم على السفر مع رسول الله .

وتجمع جيش هذه الغزوة ، حتى بلغ عدده ثلاثين ألفاً ، أو أربعين ألفاً ، أو سبعين ألفاً ـ على اختلاف الروايات ـ .

وقال المتحدث : « ان الناس يرحلون عند ميل الشمس ، فما يزالون يرحلون والساقة مقيمون حتى يرحل العسكر . فسألت بعض من كان بالساقة ، فقال : ما يرحل آخرهم إلا مساء ، ثم نرحل على أثرهم ، فما ننتهي إلى العسكر إلا مصبحين من كثرة الناس » .

٣ ـ معالجة مشكلة المنافقين ، وهؤلاء فئة من الناس دخلوا الإسلام رغبة في المغانم ، ورهبة من قوة الإسلام ، إذا استمروا على معارضته ، وان هذه الفئة من الخطورة ، بمكان تنخر في جسم الإسلام ، وتثير البغضاء في نفوس المسلمين وكان رسول الله يرغب أن لا يفتح جبهة مع هؤلاء ، إلا في غزوة تبوك فقد وقف منهم موقفاً جدياً ، لأن خطرهم كاد يؤثر على الموقف . لما أثارته هذه الفئة من البلبلة في صفوف المسلمين فقد أشاعوا بين الناس الرغبة في تأخير هذه الغزوة إلى ما بعد فصل الصيف ، فالجيش لا يطيق الصحراء اللاهبة ، والمسافة بين مكة ودمشق طويلة ، والعدو معروف بالقوة والسطوة . . . هكذا كان أسلوبهم .

فعبد الله بن أبي ـ زعيم المنافقين وكبيرهم ـ كان يقول بكل سخرية واستهزاء :

يغزو محمد بني الأصفر (بعني الروم) ، مع جهد الحال ، والحر ، والبلد البعيد إلى ما لا قبَلَ له به ! يحسب محمدُ أن قتال بني الأصفر اللعب ؟ . لكأني أنظر إلى أصحابه غدا مقرنين في الحبال . . .

فابن أبي كان يقصد بمثل هذا الحديث الارجاف برسول الله (ص) وقوة أصحابه ، وما ان لحظ رسول الله (ص) أن البلبلة بدأت تأخذ طريقها إلى نفوس الضعاف حتى اضطر إلى تغيير موقفه من هذه الطغمة .

وكانت هذه الطغمة الخطرة قد أتخذت من بيت يهودي أسمه سويلم مركزاً لتآمرهم وإبعاد الناس عن رسول الله (ص) ، وتخذيلهم عن القتال معه ، مما أضطر أن يبعث إليهم أحد أصحابه مع نفر من المسلمين ، فحرق عليهم البيت ، وشتتوا شملهم ، فتفرقوا مخزيين وكان لهذا الموقف الصارم أثره في دحر المنافقين ، وصد تيارهم الخطير ، كما كان درساً لغيرهم من أمثال هؤلاء الذين لم يفكروا بغير مصالحهم المادية والشخصية .

ورغم هذا فالرسول الكريم كان يحسب لهؤلاء كل الحسابات ، ولذا فقد أمر علي بن أبي طالب أن يبقى في المدينة ،

ليحفظها من كيد هذه الزمرة التي تنتظر أن توقع بالمسلمين . وخير فرصة لهم هذه المناسبة . فالمدينة خالية من رجالها فاذا أنقضوا عليها نهباً ، كسبوا أمرين في وقت واحد ، الاستفادة من الغنائم ، وإرباك جيش المسلمين عندما يبلغهم الخبر . إذن فالحل الوحيد لرد هذا الخطر هو إبقاء علي بن أبي طالب في المدينة ، وهؤلاء أقل وأحقر من أن يقاوموا سيف علي ، ولا يصلح لهذه المهمة غيره . فابن أبي طالب رجل المواقف والشدائد .

ورأس المنافقين عبد الله بن أبي ، فقد عسكر بجيش المنافقين إلى جانب من جيش المسلمين ، وقال الرواة : وكان عسكره ليس بأقل العسكرين فلما سار رسول الله (ص) تخلف عنه عبد الله بن ابيّ في من تخلف من المنافقين وأهل الريب ، وعادوا إلى المدينة لتنفيذ مخططهم ، ولكنهم فزعوا عندما عرفوا أن ابن أبي طالب قد تخلف فيها ، وهو الجانب المرهوب ، والذي لا يهاب الموت ، فما هي الحيلة في التخلص من علي ؟

وانبثقت فكرة جهنمية لدى ابن أبي ، فقد أشاع بأن النبي لم يخلف علياً في المدينة إلا استثقالا له ، وتخففاً منه ، وهو يرمي من وراء ذلك إلى أن علياً سيترك المدينة حتماً ويلحق بالنبي (ص) وتفرغ لهم الساحة فيعبثوا فيها ما شاؤا وحتى أن خلف النبي على المدينة غير علي فإن أمره سيهون . وسوف تتحقق مآربهم الدنيئة .

وفعلاً فما إن شاع هذا النبأ ، وبلغ مسامع علي (ع) حتى أخذ سلاحه ولحق بالنبي ، في موضع على ثلاثة أميال من المدينة ، وعندما وصل إليه « قال يا نبي الله زعم المنافقون إنك إنما خلفتني ، لأنك استثقلتني وتخففت مني ، فقال : كذبوا ، ولكنني خلفتك لما تركت ورائي ، فأرجع فاخلفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا علي : أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي . . فرجع علي إلى المدينة ، ومضى رسول الله (ص) على سفره »[1] .

وفي بعض الروايات أن النبي (ص) قال له : « إن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك »[2] .

هذه هي أهم الأمور التي عمل رسول الله على معالجتها قبل مسيرة جيش المسلمين لمحاربة الروم ، واذا ما تأكد من أن كل شيء على ما يرام ، أعلن عليه الصلاة والسلام بأنه سيكون على رأس الجيش المحارب الذي بلغ ثلاثين ألفاً ، أو أربعين ، أو سبعين الفاً ـ على اختلاف الروايات ـ .

وفي صباح يوم قد أرهقه ظل القيظ ، خرج رسول الله من

---

(١) سيرة ابن هشام : ٤/ ٥١٩ ـ ٥٢٠ وراجع كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة ـ للفيروز ابادي .

(٢) مستدرك الحاكم : ٢/ ٣٣٧ .

مسجده وقد حف به أصحابه ، وركب ناقته ، وسار الناس خلفه متجهين إلى محاربة الروم ويقول الراوي :

« تحرك الجيش ، وثار النقع ، وصهلت الخيل ، وأرتقت النساء على سقف البيوت يشهدن هذا الجحفل الجرار يتوجه مخترقاً الصحراء صوب الشام مستهيناً في سبيل الله بالحر والظمأ والمسغبة ، تاركاً وراءه القواعد والخوالف ممن آثروا الظل والنعمة ، واللذة على إيمانهم ، وعلى رضا الله عنهم » .

ومرت الأيام ، وجيش المسلمين يطوي الفيافي والقفار ، نهارهم صيف قائظ ، وليلهم لهب لافح ، ووعورة الطريق ، ومشاق السفر . كلها عوامل تتعب المسافرين ، ولكن النفوس إذا ملئت بالإيمان إزدادت تفانياً في سبيل العقيدة .

لقد مرت بهم ساعات شاقة ـ يمكن أن تكون ساعة اختبار ـ يظهر فيها قوي الإيمان من ضعيفه ، وصلب العقيدة من هشها . . واشتد جيش المسلمين يقطع المسافة الطويلة في بيداء جرداء بلقع ، لا ماء فيها ولا كلاء . وقد نضب الماء وجفت القرب ، فساور الكثير من الجيش القلق والاضطراب ، ماذا سيكون المصير ، إنه الموت المحتم .

ولكن قوي العقيدة مطمئن النفس « قل لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم » إنه المقياس الذي يمكن أن يحدد بين الناس .

وتصاعدت الهمسات من هنا وهناك من أولئك النفر الذين لم يعمر الإيمان قلوبهم : قالوا للنبي أجل سفرك لما بعد هذا الفصل . . وبلغت هذه الأقوال سمع رسول الله (ص) ، إنها ساعة المحنة ، والشدة ، والضيق . وهو يعلم حقاً أن صحابته لم يكونوا على درجة واحدة من الإيمان . لم يكن كلهم بمنزلة الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري في العقيدة ، بحيث أن راحلته قصرت به في الطريق ، وعندما يأس من معالجة بعيره ، تركه ، وأخذ متاعه عنه ، وحمله على ظهره ، ورضي لقدميه اللتين أثقلتهما الشيخوخة أن تلامس رمال الصحراء اللاهبة ، وتضرب وجهه لفحات الهواء الحارة الجافة ، وهو لا يبالي بها ، إنما همه أن يلحق بجيش المسلمين ، ويكون بخدمة رسول الله (ص) وأن لا تفوته المثوبة ، فأي إيمان هذا يتحلى به هذا الصحابي . .

وبعد جهد جهيد يلحق في أواخر الجيش ، ويعج المسلمون به ، ويعلم رسول الله بخبره ، فيرفع طرفه إلى السماء ، ويناجي السماء من أعماق قلبه :

« رحم الله أبا ذر يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » .

وكان كما قال عنه رسول الله (ص) ـ فقد سار وحده في طريق العقيدة ، ومن أجل عقيدته نفي الى الربذة ، ومات وحده ، ثم

سيبعث وحده يوم الحساب لينال جزائه الأوفر .

إن الصفوة من أمثال أبي ذر ، لا يهمها أن تقطع الفيافي والقفار . وتعاني مرارة القيظ والجفاف ، طالما هي في ركاب النبي (ص) ، ومصيرها مشدود به . والرسول على علم بدلك ، لذا فهو عندما بلغ سمعه حديث من فقد الصبر ، واعتقد بان العطش سيقتله . دعا الله بأن يطفيء عطش قليل الصبر وكانت السماء زرقاء صافية ، وما إن رفع كفّيه للدعاء حتى تجمعت السحب ، ثم تكاثفت ، وهطلت بوابل من المطر . فزايل الفزع من نفوس البعض ، وانكشفت أسارير آخرين . . ولكن الذي لم يعمر قلبه بالإيمان ، ما إن تنكشف المحنة ، يعود إلى عهده السابق ويتناسى ما كان عليه قبل برهة من الزمن من الهلع والفزع . يقول أحد المسلمين لآخر من هذا الصنف : ويحك أبعد هذا الذي رأيت شيء ؟ فيرد عليه بكل صلافة ووقاحة . إنها سحابة مارة ، ولا فضل فيها لمحمد . .

وأطل جيش المسلمين على تبوك ، وهي عين بين وادي القرى والشام ، وفي منتصف الطريق ، أو إلى الشام أقرب ، وقد أمر النبي (ص) جيشه أن يستريح فيها برهة من الزمن ، وليستعد لقطع المرحلة الثانية إلى الشام ، والتي سيكون فيها اللقاء مع العدو .

ومن جهة أخرى نرى الروم وهم منهمكون على الاستعداد لمقابلة المسلمين، وما كان يدور في ذهنهم أن محمداً (ص) سيبادر إلى مجابهتهم ، وغزوهم في عقر دارهم ، فخامرهم الرعب الخفي ، وانتابهم الفزع المروع . بالاضافة إلى أن أخبار الانتصارات التي حصل عليها المسلمون في معاركهم مع العرب ، وكيف انهارت قريش ، وتهاوت طواغيتها أمام عظمة محمد (ص) قد بلغت مسامعهم من قبل . ثم لو كان محمد غير واثق من كسب جولته هذه لما أقدم على تهيئة هذا العدد ، والزحف به بقلب صامد مطمئن .

كل هذه الحسابات دارت في أذهان قادة الروم . وعندها ـ كما يقول الراوي : « تجسدت لديهم المخاطر ، وقدروا أن محمداً لو انتصر في هذه المعركة سوف لا يقف عند حد ، وستتبعها انتصارات أخرى ، وبالتالي قد تتعرض الامبراطورية الرومانية بكاملها لغزو هذا الجيش الذي زودته الانتصارات بكل أسباب القوة ، وذاق حلاوة النصر ، وأصبح يفكر فيه ، وحينما يدخل المعركة لا يتصور غيره ، وفي الوقت ذاته كان الجندي المسلم لا يرى للحياة وزناً ما دام سينتقل منها إلى حياة دائمة ، ونعيم دائم .

لقد عرف الرومان كل ذلك ، وتصوروا المخاطر التي يجرها

الصدام مع هذا الجيش الذي يرى أن الجنة تحت ظلال الأسنّة ، فهو إن حارب وقتل فله الجنة ، وإن لم يقتل فله الجنة . فآثروا الانسحاب من مواقعهم التي كانوا عليها إلى داخل بلادهم ليلتزموا حصونهم ، ويدافعوا عنها فيما لو تعرضت لغزو المسلمين » .

كان هذا التراجع من الروم كافياً لأن يكسب المسلمين قوة وانتصاراً ، ولهذا أمر رسول الله (ص) أن يقف جيشه في تبوك ، واتخذ منها مركزاً موقتاً له وأرسل إلى القبائل المتاخمة يدعوها إلى الاسلام ، أو إلى الجزية ، واستجاب الكثير منها إلى الطاعة ، وتقديم الجزية . « وكتب بينه وبينهم كتباً تتضمن شروط الصلح بما يحفظ للمسلمين حقهم في الجزية والتجول في تلك المناطق آمنين على أنفسهم وأموالهم ويضمن لأصحاب تلك المناطق حرية العقيدة والعيش مع جيرانهم المسلمين بسلام واطمئنان » .

ومن جملة كتب الأمان التي كتبها الرسول إلى زعماء تلك المناطق كتاب ليوحنا بن رؤبه ـ صاحب أبلة ـ ونصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذه أمنة من الله ، ومحمد النبي رسول الله ليُحنة بن رؤبة ، وأهل أبلة ، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر : لهم ذمة الله ،

وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً ، فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طَيِّبٌ لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر » . .

واطمئن النبي (ص) بعد عقد تلك المعاهدات الأمنية مع القبائل المتاخمة على حدود الحجاز ، ولم يبق للروم منفذ إلا أمير دومة ، الذي يتعاطف مع الروم ، وخشية من أن يتسرب الجيش الروماني من تلك الجهة لو حاول غزو الحجاز ، قرر إخضاعه بأي سبيل كان . فأرسل له سرية من جيش المسلمين لمنازلة أكيدر بن عبد الملك أمير دومة ، وتربصت السرية له حتى إذا كانت ليلة مقمرة خرج فيها أكيدر مع أخيه حسان وثلة من حرسه لمطاردة بقر الوحش ، وفيما هم بهذه الحالة إذ بالسرية تنقض عليهم ، وتقتل أخ الأكيدر وبعض حرسه ، ويقع الأمير أسيراً بيد قائد السرية ، وجيء به إلى النبي (ص) فعرض عليه الإسلام فأبى ، وصالحه على الجزية ، وعقد معه إتفاق آمن ، وخلي سبيله ، بعد أن أكرمه ، وعزز مكانه .

ولقد كان لهذا الموقف السلمي من الرسول الأعظم مع هؤلاء الزعماء والأمراء المؤيدين للرومان أكبر الأثر في النفوس ، فقد حقن دمائهم ، وصان أعراضهم ، وحفظ أموالهم ، إنها من

مكارم رسول الأخلاق ، ومن مُثل دعوته الانسانية ، فرسول الله بُعث ليصون البشرية من الدمار ، ويتحرى في كل مواقفه ـ وهو في موقف القوة ـ أن يتجنب إراقة الدماء ، وتعريض الأموال للسلب ، والنهب ، وحتى مع أعداء الإسلام كالروم .

وهنا أعلن رسول الله (ص) بأنه غير مستمر في مسيرته ، ولا متوغل وراء الروم في بلادهم ، ومكتف بهذا القدر من النصر في غزوته ، وإنه عائد الى المدينة من غداة غد .

وشاع النبأ في الجيش ، وشكر الله الكثير من المسلمين ، بأن غزوتهم هذه بيضاء لم ترق فيها الدماء ، ولم تسلب فيها النساء ، وقد دانت القبائل المتاخمة للحجاز بالولاء والطاعة للمسلمين ـ حسب الاتفاق الذي تم بينهم وبين النبي (ص) ـ.

لكن هذا النبأ لم يرض به البعض من المنتفعين ، والمنافقين ، الذين صحبوا جيش المسلمين ، وقد بنوا الآمال الجسام من وراء هذه الغزوة نفعاً وربحاً ، وغنيمة ونهباً ، وإذا بهذه الأماني الطويلة العريضة تنهار بين عشية وضحاها .

لقد آن لهذا الرتل الخامس ـ الذي لم يؤمن بالدعوة ، ولم يسلم بها إلا من أجل دمه وماله ـ أن يثير المشاكل على رسول الله ، بعد أن هدم آمالهم ، وانهارت الأماني التي كانوا يحلمون بها .

وأي أداة لهم أسهل من المنافقين ورعاع النـاس أن يركزوا في أذهانهم ، بأن محمداً لم يفعل شيئاً ، ولم يكسب نصراً في موقفه هذا ، ولاكت الألسن هذا القول ، والبسطاء من النـاس ، هم دائماً الجسر الذي يعبر عليه أصحاب الغايات ، ورسول الله يسمع منهم هذا القول ، وتترامى إليه تلكم الأحاديث ، وهو يسكت على مضض لا يريد أن يعلن أمراً صمم عليه وهو على مقربة من بلاد العدو .

وكأنهم عرفوا أن النبي سيقف منهـم موقف المحاسـب اذا ما بلغوا المدينة ، فتآمروا عليه ، وصمموا على الوقيعة به ، يحدثنـا الراوي فيقول :

« لما رجع رسول الله (ص) قافلاً من تبوك إلى المدينة ، حتى إذا كان ببعض الطريق مكر به ناس من أصحابه ، وتآمـروا أن يطرحوه في العقبة ، وأرادوا أن يسالكوها معه لهذه الغاية ، فأخبر رسول الله خبرهم ، فقال لأصحابه من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي فانه أوسع لكم ، فأخذ النبي العقبة ، وأخذ الناس بطن الوادي إلا النفر الذين أرادوا المكر به فقد استعدوا وتلثموا . وأمر رسول الله (ص) حذيفة بن اليمان ، وعمار بن ياسر فمشيا معه ، وأمر عماراً أن يأخذ بزمام الناقـة ، وحذيفـة يسوقهـا ، فبينما هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوهم ، فغضب رسول الله . وأمر حذيفة أن يراهم ، ويتعرف عليهـم فرجـع ،

ومعه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم وضربها بالمحجـن ، وأبصر القوم ، وهم متلثمون فأرعبوا حين أبصروا حذيفـة ، وظنـوا أن مكرهم قد ظهر ، فأسرعوا حتى خالطوا الناس ، وأقبل حذيفـة حتـى أدرك رسـول الله ، فلما أدركه ، قال : اضرب الناقـة يا حذيفـة ، وأمش أنـت يا عمار فأسرعـوا ، وخرجـوا من العقبـة ينتظرون الناس . فقال النبي : يا حذيفة هل عرفت أحداً منهم ؟ فقال عرفت راحلة فلان وفلان . وكانت ظلمة الليل قد غشيتهم وهم متلثمون . فقال رسول الله : هل عرفت ما شأنهـم ، ومـا يريدون ؟ قال : لا يا رسول الله : قال : فانهم فكروا أن يسيروا معي حتى إذا صرت في العقبة طرحوني فيها فقال : أفلا تراف بهم إذا جاؤوك؟ قال : أكره أن يتحدث الناس ويقولوا أن محمد قتل أصحابه ، ثم سماهم بأسمائهم » .

قال الراوي : كان حذيفة يعرفهم بأسمائهم .

وكما يقول المثل أن الكيل قد طفح ، وأصبح شأن هذه الطغمة خطراً إلى حد يخشى على كيان الدولة منهم ، وكل تهاون معهم قد يعرض الجميع الى شر قد لا يحسن عقبـاه ، فصمـم النبـي على مجابهتهم بالعنف ، وضربهم بيد من حديد .

وكان مأوى هؤلاء « مسجد ضرار » ويقـع بذي أوان ، بينـه وبين المدينة مسيرة ساعة . فما ان وصل إليه النبي (ص) ، حتى أمر بعض أصحابه بأن ينطلقوا إلى هذا المسجد الظالـم أهلـه ،

ويهدموه ، ويحرقوه . وفعلا نفذوا ما أراد النبي ، وهدموا هذا المسجد وحرقوه وفرقوا أهله .

وبدأ المنافقون يحسبون أن النبي (ص) قد أستتب له الأمر ولم يبق له إلا تصفيتهم ، ولم يبق لهم من ملجأ ، إلا دار عبد الله بن أبيّ شيخ المنافقين وكبيرهم .

يقول حذيفة وهو من أجلاّء الصحابة : إن ابن أبي ما كان يمس بسوء كرامة لولده عبد الله ، الذي كان من فضلاء الصحابة وخيارهم .

وقد وصفت المصادر ابن أبي بأنه :

« كان عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين . وممن تولى كبر الأفك في عائشة . . وهو من أشراف الخزرج ، وكانت الخزرج قد اجتمعت على أن يتوجوه ، ويسندوا أمرهم إليه قبل مبعث النبي (ص) ، فلما جاء الله بالاسلام نفس على رسول الله ، وأضمر النفاق حسداً وبغيا .

وهو الذي قال في غزوة تبوك : ليخرجن الاعز منها الأذل ، فقال ابنه لرسول الله (ص) : هو الذليل يا رسول الله ، وأنت العزيز ، وقال لرسول الله (ص) : إن أذنت لي في قتله قتلته . فقال رسول الله (ص) : لا يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه ،

ولكن بر أباك ، وأحسن صحبته . . »[1] .

وهكذا كان رسول الله (ص) مثال الخلق العالي ، يعلم أصحابه كيف يكون المربي والمنقذ القائد، فهو حتى مع أعدائه ، كابن أبي ـ الذي كان يتوخا الوقيعة بالرسول مهما واتته الفرصة ـ يوصي ولده عبد الله بحسن معاملته وعدم الإساءة إليه ، لأنه والده ، ومن حظه أن يكون باراً مع والديه .

وعبد الله بن أبي لم يعمر طويلاً بعد تبوك ، فقد عاش شهرين ـ كما تحددها المصادر التاريخية ـ ومات على أثر مرض ألم به ، وقد هزّ فقده موقف المنافقين ـ أو طغمة الرتل الخامس ـ الذين اتخذوا من كبير المنافقين ابن أبي ملجأ وقائداً ، وحتى ذهب بعض الرواة إلى أنه كان حليفاً لليهود وناصر لكل من يقوم بعمل يسيء إلى الاسلام .

وفي ظلال غروب يوم قد مسّه حفيف نسيم أخريات الصيف دخل رسول الله (ص) المدينة عائداً من غزوة تبوك ، وقد منّ الله على نبيه بالعودة سالماً مع جيشه اللجب ، وآمنه من كل عادية ، وبها قويت شوكة الاسلام ، وانتشر ظله الوارف على الجزيرة العربية ، ودانت له كل طواغيتها بالطاعة .

---

(١) راجع موقف ابن أبي من الاسلام الجزء الأول من هذا الكتاب في الحديث عن ولده الحباب ، وهو عبد الله بن عبد الله بن أبي .

يقول أبو عبد الله حذيفة بن اليمان ـ أحد الصحابة الذين غمرهم الرسول بعطفه وبقربه ـ وعدنا من غزوة تبوك ، وقد منح الله نبيه نصراً مبيناً على أعدائه دون إراقة دماء ، وانهار المنافقون ، بعد أن أكلهم الحسد بهدم مسجد ضرار . .

وما ان استقر المقام بالنبي (ص) في المدينة ـ بعد هذه الغزوة ـ حتى بدأت القبائل المنتشرة في الحجاز ، والباقية على جاهليتها تعلن إسلامها ، بما فيها قبيلة ثقيف ، والتي تحصنت بالطائف ، وأمتنعت عن الاستجابة للنبي في حينه ، كانت في مقدمة القبائل التي أعلنت إسلامها ، ودانت لرسول الله بالطاعة .

وتصرمت الأيام ، ورسول الله انتقل إلى جوار ربه ، وحذيفة بن اليمان بقي ذلك المؤمن الشامخ الذي يدافع عن عقيدته بكل إيمان ، فقد تولى قيادة جيش المسلمين في فتح همدان ، والري ، ودينور ، رغم كبر سنه ، وشيخوخته وكان صريحا واضحاً في مجابهة الباطل ، وقولة الحق مهما كلفه الأمر ، ومن أجل قولة الحق . نفي إلى المدائن في عهد عثمان ، وبقي هناك حتى مقتل عثمان .

وقد وصفته المصادر بأن حذيفة من خاصة الإمام علي عليه السلام وقد آخا النبي بينه وبين عمار بن ياسر ، وبقيا على صدق

ووفاء من الامام أبي الحسن علي بن أبي طالب (ع) ، ولازماه ملازمة الظل ، حتى اختصا به .

وفي لحظات موته أوصى أبنيه : صفواناً وسعيداً بملازمة الإمام علي ، وإتباع منهجه ، والسير على هداه ، وبرا بوصية أبيهما فقد كانا من أبطال صفين وقتلا بين يدي إمامهما .

رحم الله حذيفة بن اليمان ، فقد كان صلب الإيمان ، قوي الشكيمة ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكان عينا للنبي على أعدائه ، وفارساً مقداماً في غزواته ، كما كان لعلي صفياً في أيامه ، ومؤمنا متفانياً في حبه له ، فقد سمع من النبي (ص) أكثر من مرة يقول :

« علي مع الحق ، والحق مع علي ، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض » .

بريدة بن الحصيب بن عبد الله الأسلمي الخزاعي

في ظلام الليل الدامس ، ومع هبات الريح الحارة تجمع سمار الشيخ ابو معاذ في حلقة تكاد تكبر بقية الحلقات المنتشرة هنا وهناك ، خلف بيوت المدينة . والشيخ المحدث يحدّق في جلاسه ، يتفقدهم واحدا واحدا ، وحتى اذا ما اطمأن اليهم ، بدأ في حديثه ، وبسمة المحبة لا تفارق شفتيه ، وعلى محياه ظل غمامة من هموم الزمان ، وقال :

وامتدت الدعوة الفتية في ارجاء مكة تلف الاجواء بأريجها ، وتسحر الاذهان بافكارها ، وضاقت قريش ذرعا بهذا الطارق الساحر ، فقد أفسد عليها أمر شبابها ، واخذ بمجامع ضعافها ، فدبت فيهم روح التمرد على اصنامهم ، وتعملقت في نفوسهم عوامل التحرر من هذه العبودية . ولربما يصل الامر الى أبعد من هذا . . الى ثورة عارمة على نظمهم ، وخروج مهدد على سلطانهم .

واجتمعت قريش لتفكر مع اهل الرأي والتجربة من بطانتها في طريقة تتخلص بها من محمد ، وتجتث الدعـوة من جذورهـا ، والامر ليس بالصعـب الكثـير خاصـة ، وان ابـا طالـب قد لفـه التراب ، والعلية من اصحابه قد هجروا مكة الى الحبشة ، خشية بطش قريش ، ولم يبق معه الا علي بن ابي طالب ، وعـدد من اصحابه .

والمهم ان تصل قريش الى طريقة التخلص من محمد بحيث لا تثير عليها حفيظة بني هاشم ، وعندهم من السيوف التي ان سلت من اغمادها فلا تعود اليها الا بالنصر .

وانتهت الى قرار . . فيه الخلاص والامـان . . الخـلاص من محمد ، والامان من أسرته . . .

وكيف ؟ .

تلم قريش من كل قبيلة رجلا عرف فيها بالضراوة والشراسة ، وتهجم هذه اللمة من الناس على محمد وهو راقد في بيته ، بعد ان يمضي من الليل اكثره ، وتقتلـه بسيوفهـا ، فيضيع دمـه بـين القبائل ، ولا مجال عندها لبني هاشم بالمطالبة بدمه .

فكرة رائعة قفز لها ابو سفيان من مجلسه جذلا ، وقبـل رأس المقترح ، وضحك لها ابو جهل حتى أستلقـى على قفـاه . . اذاً

فليكن هذان الرجلان هما محور المؤامرة ، عليهما اختيار الرجال ، ووضع الخطة ، وتحديد وقت التنفيذ .

وبعد فترة من الزمن ، تمت الاستعدادات ، واختير الرجال ، وحددت ساعة الصفر ، انهـا الليلـة القادمـة ، والوقـت الهـزيع الاخير منها ، والقمر لما يلفظ انفاسه ، والعيون قد نامت ، وكل شيء ساكن حتى الريح . .

وقبل ليلة التنفيذ بلغ النبـاء الى مسامـع النبـي ، انهـا الليلـة الليلاء ، وعليه ان يحسب لنفسه الحساب ، وكان تصميم الرسول ان يترك مكة دون ان يعرف بذلك أحد ، وخير له ان يمـوه على القوم بان يتـرك احـدا ليتوسـد مكانـه اذا زحف الليل ، ولـكن الشخص الذي سيكون بدله من ؟ . انها مهمة شاقة جداً ، وفيها من احتمال التضحية ما يبعد الكثير عن قبول هذا الامر .

ولكن علي بن ابي طالب يختلف عن الناس كل الناس . انـه أقربهم الى رسول الله ، وأشد ايماناً به من عامة المؤمنين بدعوته ، وهو على استعداد لقبول مثل هذه المهمة الفدائية .

ويجول في ذهـن النبـي القتـل . ولعـل عليا سيصـاب بسـوء والاحتمال قريب جداً ، فهل ابن عمه على استعداد للتضحية الى هذه الدرجـة ، ولـكن هذه الافـكار تتبـدد بسرعـة من ذهــن الرسول . انه خبـر ابـن عمـه ، وعـرف اخلاصـه له ، ومـدى

تفـانيه . . وعلي لا يهمـه القتـل ما دام فيه سلامــة الرســول ، واستمرار الدعوة التي آمن بها ابن ابي طالب ، وعمره لم يتعـد السادسة . . وعلي يهمه ان تأخذ الدعوة مسارها ، ولا تقف ، فهو مؤمن بها كل الايمان ، لا بل هو الجزء الاقوى منها . .

وأطلت لحظة الاختبار . وعلي منهـا ذلك الينبـوع الصـافي ، وعلي منها ذلك النور المشع . . وابواه قد غرسا فيه الامل النابض لهذه الدعوة . .

ويرسل محمـد عليه ، ويقف علي بـين يديه أحساسـه المؤمـن يشعره بان في الطلب مهمة ، وهذه سعادته ان يلبي لرسـول الله طلباً ، ويمتثل له أمراً .

ويحدثـه محمــد بالموضــوع حديث الاب لابنــه ، الاستـاذ لتلميذه ، القائد لجنديه ، ويسمع ابن ابي طالب من ابن عمه كل ما يجول في ذهنه ثم تصميمه على ترك مكة ، وخطته في هربه ، وانـه اختـاره ليكون في فراشــه ، والمضحـي عنـه ، ثم يسـكت الرسول لحظات ينتظر الجواب من ابن عمه ، وان كان مسبقاً قد قطع بالاجابـة . فهـو يعـرف نفسية علي ، ولـكن لا بد ان يرد عليه .

وينساب الرد من علي هادىءً رزينا ، يعبر عن البطولة الفتية التي تتجسـد في هذه الشـخصية الفـذة في سبيل تثبيت الرسالـة

الاسلامية انه كما أعتقد رسول الله ، ومَن أولى منه بهذا الفداء ، وأيّ شرف اكبر منه عند تحمله لهذه المهمة ، والعبء الثقيل لا ينهض به الا اهله . انه لقبول مع الفخر .

وغربت شمس ذلك اليوم شاحبة هزيلة من سماء مكة تودع الانسان المنقذ وهو على اهبة الرحيل عن هذه الديار ، وبدأ الظلام ينتشر في تلك الارجاء الملفعة بالهموم . .

وحضر علي الى منزل ابن عمه الامين ليتسلم مهمة الفداء ، وينام بمكانه ويتسجى ببردائه الاخضر ، ولم يخالج علياً همّ ، ولم يزعزعه خوف انها السعادة الكبرى . .

ويتناجيان برهة من الوقت ، انه يحمله كثيرا من الامور ، لا بد من تنفيذها قبل ان يلتحق علي به في الهجرة ، ثم يقبله ما بين عينيه ، ويتوادعان . انها لحظة رهيبة تلف العملاقين ، فيهتزان لها . ولولا الايمان ، وعمق المسؤولية لصعب الفراق ، ولو لفترة وجيزة .

وتحتضن الصحراء محمدا . وتلفه بعتمة ليلها الرهيب ، ووحشة اصدائها المرعبة .

ويطبق بيت الرسول اضلاعه على فتى ابي طالب ، وهو يتوسد فراش النبي ويتسجى ببردائه ، وتمر الساعات لاهثة واجمة وكأنها

تجر هموم الزمان حتى اذا ما حان موعد الهجوم على نبي الرحمة ، يستعد الهاجمون ، والهلع يعصر قلوبهم ، وتسل سيوفهم ، وهي تتلوى من الذل وتكاد تسقط من الخجل . ولكن ضغن الجاهلية ، وحقد الانانية يدفع بهذه الشرذمة الى تنفيذ مخططها الرهيب .

وتجفل الطغمة ، وتتسمر منها العيون ، وترجف الايدي ، وتموت البسمة على الشفاه ، وتند صيحة مرهقة من احدهم ، وقلبه يلتاع من هول الموقف . ان النائم في فراش النبي عليّ ، وهو ليس بغيتهم ، ولا قابلية لهم بمقاومته ، وترتد السيوف خائبة كأنها العار ، ويرجع اصحابها الى الوراء تحاول الفرار من بطل الابطال .

وعصبة قريش لم يغمض لها جفن في ذلك الليل البهيم ، انها على جمر الغضا ، تعاني لوعة الانتظار . . .

وطال الانتظار ، وراح الفجر الساخر يفضح خطوات المتآمرين المكلفين بتحقيق امل قريش ، ويعودون الى عصبتهم فاشلين يجرون من خلفهم اذيال الخيبة واثام العار .

ومهما حاول القوم اللحوق بمحمد كان القدر أقوى منهم ارادة ، فقد حملته الصحراء على اجنحتها الرملية الى حيث يريد . . .

وعلي لم يكن في حساب القوم صفرا على الشمال ، فهو من ابن

عمه ذلك الدرع الواقي ، ومن دعوته ذلك المؤمن الصادق ، ولكن لا سبيل لها عليه . انه البطل الذي يرهب الصناديد ، ويجبن الفرسان اذا أقبل عليهم .

وأتم رسول الله شوطه الى مدينة يثرب ، وقريش ـ بعد هذا ـ لا حول لها عليه في هذا المكان . وليترك تلك القلوب المتفجرة بالحقد تتلظى لوعة ، وتنز ألماً بعد ان خابت في مرماها .

وكان هذا أول موقف بارز لابن ابي طالب من ابن عمه رسول الانسانية ودعوته الشامخة .

والايام تمر ، والمواقف الخالدة من علي تتكرر ، وتبرز بصورة لا يمكن التغاضي عنها ، ولم تكن تلكم المواقف المشرفة من ابن ابي طالب نحو الدعوة وصاحبها خفيفة الظل على قلوب كثير من الذين التفوا حول الرسول الكريم ، حتى قال قائلهم : كنا نتمنى ان تكون لنا واحدة من تلك المكرمات التي اختص بها ابن ابي طالب .

ولم تكن تلكم المكرمات ، والمواقف التي اختص بها علي عليه السلام دون غيره عادية ، ساذجة ، لا يقصد من ورائها أمر . فالرسول الكريم لا ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحي ، فقد اقترنت هذه المكرمات وتلك المواقف من الرسول باحاديث واقوال تعبر عن مكانة هذه الشخصية وأبعاد ايمانها ، حتى عزّ ان

يكون لها قرين بعد صاحب الدعوة ورسول السماء العظيم .

وكيف لا يكون كذلك ، وهو صاحب التضحية الاولى يوم غام النصير في مبيته مكان النبي ليلة هجره لمكة ، وهو مصداق واضح للآية الكريمة حيث قال سبحانه : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رؤوف بالعباد » .

انها مكرمة لا تضاهي .

ثم سكت الشيخ ابو معاذ ، لعله يلتقط انفاسه المجهدة ، بعد ان اتعبه الحديث ، ومرت فترة قصيرة ، عاد الشيخ للحديث مرة اخرى ، وقال :

رحم الله الصحابي الجليل « بريدة بن الحصيب بن عبد الله الاسلمي الخزاعي » وكان اخر من توفي من الصحابة عام ٦٣ هـ في مدينة « مرو » .

وكان ابو سهل ممن سمع بهجرة النبي عن مكة ، وهو في طريقه الى المدينة فجمع اصحابه وبلغوا ثمانين نفراً ، واستقبلوا النبي عند الغميم ، واسلم هو ومن معه فصلى رسول الله (ص) صلاة العشاء فصلى هو ومن معه خلفه ، ثم واكب النبي سيره الى المدينة ، وعاد بريدة الى مضاربه في ليلته تلك ، وذكرى محمد لم تبارحه وآيات من القرآن الكريم كان قد سمعها منه فوعاها ، واحس بوقعها ،وتاثيرها في نفسه ، فبدأ يتطلب المزيد من آيات

الكتاب ، تبلغه من هذا وذاك عن رسول الله ، ثم صار يتردد على المدينة ليسمع من الرسول مباشرة ، ويتأدب باخلاقه وحتى اذا ما انتهت واقعة أحد كان بريدة قد انتقل الى المدينة ليكون مع الرسول ، واحد صحابته المخلصين ، وقد استعمله رسول الله على صدقات قومه وشهد مشاهد النبي ، وممن بايعه « بيعة الرضوان » وأبلى في خيبر بلاء حسنا .

ومرت الايام ، وخرج بريدة الى بعض طريق الشام ـ كما تحدد الرواية ـ ورجع ، وقد قبض رسول الله (ص) وبايع الناس ابا بكر ، فاقبل بريدة الى مسجد النبي ، والخليفة الاول على منبر النبي ، وعمر بن الخطاب دونه بمرقاة والناس يبايعون الاول بالخلافة ، فاصابته الدهشة ، ماذا اصاب القوم ؟

بالامس القريب ، والقريب جداً كان موقف الشيخين غير هذا . لم يكن ذلك الموقف منهما بالبعيد .

انه في العام العاشر من الهجرة ، خرج النبي من المدينة ، ومعه أهل بيته ونسائه وعامة المهاجرين والانصار الى الحج ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد عدد من صحب الرسول في « حجة الوداع » فذهب بعضهم الى مائة وعشرين الف شخص ، واقل من ذكر ان عددهم كان اربعة عشر الف مسلم ومسلمة .

فلما قضى النبي (ص) مناسكه ، وانصرف راجعا الى

المدينة ، ومعه هذا الحشد الهائل من الحاج ، وصل الى « غدير خم من الجحفة » ، والتي تتشعب فيها طريق المدنيين والمصريين والعراقيين ، وكان ذلك في يوم الخميس الثامن عشر من شهر ذي الحجة ، نزل الوحي عليه ، وبلغه قول الله سبحانه :

« يا ايها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس » .

وعندها أمر الرسول الاعظم بالصلاة جامعة ، وكان يوما قائضا ، قد الهبت الحجارة ، واشتدت حرارة الشمس ، حتى ان بعض المؤرخين عندما وصفوا ذلك اليوم قالوا : كان الرجل يضع رداءه على راسه ، وبعضه تحت قدميه من شدة الرمضاء ، وظلل رسول الله بثوب على شجرة ليقيه من الشمس ، فلما أتم صلاته قام فيهم خطيبا ، وقد جمعوا له منبرا من اقتاب الابل وقال ، بعد ان افتتح الخطاب بذكر الله ، والثناء عليه :

« ايها الناس قد نبأني اللطيف الخبير انه لم يعمر نبي الا مثل نصف عمر الذي قبله ، واني أوشك ان ادعى فأجيب ، واني مسؤول ، وأنتم مسؤولون فماذا أنتم قائلون ؟

قالوا : نشهد انك قد بلغت ونصحت ، وجهدت ، فجزاك الله خيراً . .

قال (ص) : ألستم تشهدون ان لا اله الا الله ، وان محمدا

عبده ورسوله وان جنته حق ، وناره حق ، وان الموت حق ، وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور ؟

قالوا : بلى نشهد بذلك .

قال (ص) : اللهم أشهد اني قد بلغت . . ايها النـاس الا تسمعون ؟ .

قالوا : نعم .

قال (ص) : انظروا كيف تخلفوني في الثقلين ؟ وانتم واردون على الحوض .

فنادى منادي من الجموع : وما الثقلان يا رسول الله ؟ .

قـال (ص) : الثقـل الأكبـر كتـاب الله طرف بيد الله عز وجل ، وطرف بأيديكم فتمسكوا به ولا تضلوا .

والآخر الاصغر عترتي ، وان اللطيف الخبير نبأني انهـا طرف بايديكم فتمسكوا به لا تضلوا ، وانهما لن يتفرقا حتـى يردا عليّ الحوض ، فلا تقصروا عنهما فتهلكوا » .

ثم اخذ بيد علي بن ابـي طالـب فرفعهـا ، حتـى بان بياض أبطيهما ، وعرفه القوم أجمعـون ، واستمـر الرسـول الـكريم في خطابه :

« أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن كنت مولاهم فعلي مولاه ـ قالها ثلاث مرات ـ اللهم والِ من والاه ، وعاد من عاداه ، واحب من أحبه ، وأبغض من ابغضه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار . . الا فليبلغ الشاهد منكم الغايب » .

ولم يتفرقوا حتى نزل الوحي على النبي بالاية الكريمة :

« اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا » .

فقال رسول الله (ص) : « الله اكبر على اكمال الدين ، واتمام النعمة ، ورضا الرب برسالتي ، والولاية لعلي من بعدي » .

ثم طفق القوم يهنئون عليا عليه السلام بالامارة والخلافة ، وفي مقدمتهم الشيخان كل يقول له : بخ بخ لك يا بن ابي طالب اصبحت وامسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة .

ويقول ابن عباس : وجبت والله لعلي البيعة في اعناق القوم . .

ووقف ابو سهل بريدة وقد اصيب بالدهشة والذهول ، ماذا يسمع ، وماذا يرى ؟ أين موقف الامس من القوم ، والعهد الذي قطعوه على انفسهم امام النبي بولاية علي عليه السلام ؟ وهذا

الموقف الحالي ، والقوم هم القوم يتهافتون على مبايعة ابي بكر وابعاد علي عن منصبه .

ويستعرض بريدة الموقفين في ذهنه بكل ابعادهما ، فيصيح بالشيخين مستنكرا ، فيردا عليه : أجننت يا بريدة ؟ فيقول لهما : لا والله ما جننت لكن اين سلامكما بالامس على علي بن ابي طالب بأمرة المسلمين . فقال له ابو بكر : الامر يحدث بعده الامر ، وانك غبت وشهدنا . والشاهد يرى ما لم يره الغائب . . فقال لهما : رأيتما ما لم يره الله ولا رسوله . . ثم التفت الى الخليفة وقال : وفى لك صاحبك بقوله « لو فقدنا محمدا لكان هذا تحت اقدامنا » .

خيم على المجلس وجوم ، وخشى ابن الخطاب ان يفلت منهم زمام الموقف فالتفت الى بريدة ، والشرر يتطاير من عينيه وصاح به :

يا بريدة : ان النبوة والامامة لا تجتمع في بيت واحد .

فرد عليه بريدة : أم تحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، حيث قال عز من قائل : « فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة ، والنبوة ، وآتيناهم ملكاً عظيماً » . .

وعاد الوجوم الى المجلس برهة من الوقت ، ثم صرخ ابو سهل

في وجوه القوم : الا ان المدينة حرام علي ان اسكنها حتى أموت . .

ولملم الصحابي الجليل شمله ، وخرج من المدينة باهل بيته ، ونزل بين قومه « بني سلم » حتى انتهت الخلافة الى الامام علي عليه السلام التحق به حتى قدم العراق ، ولازمه .

ولما أصيب الامام انتقل بريدة باهله الى خراسان وسكن مرو حتى لبى نداء ربه عام ثلاث وستين من الهجرة .

وسكت الشيخ الوقور ابو معاذ ومسح دمعة انسابت من عينيه المثقلتين بالهموم . وكان الليل يجمع ظلامه الدامس عن مجالس السامرين وخيط الفجر الفضي يتحدى الآفاق . .

رحم الله ابا بريدة لا يسكت عن الحق ، حتى وان كلفه غالياً ، فقد كان من السباقين الى الامام علي حينما سمع بموت النبي ، وكان في قبيلته ، فاخذ رايته ونصبها على باب علي ، وصاح بكل جرأة : لا ابايع غير صاحب هذا البيت ، فقال له القائلون : أتفق الناس على غيره فما لك تخالفهم ؟ فرد عليهم مخالفة الناس أهون علي من مخالفة الله . ففي رقبتي بيعة له امام رسول الله ، والراد عليه راد على الله . .

وانقطع الحديث . . وتفرق القوم ، وبقيت الذكريات خالدة ناصعة . ومهما طال الزمن ، وتعاقبت الدهور فالحقيقة لا تخفى . . .

أُسَامة بن زيد بن حَارِثة

على بسمة القمر ، وخشوع الليل ، وعلى صفاء الطبيعة ورهبة النجوم تقاطر سمار الشيخ أبو معاذ كعادتهم ، وكلهم شوق لحديثه ، واهتمام لتتبع أخباره عن الماضين .

ويبدأ الشيخ أبو معاذ في حديثه ، وقد أنشدت النفوس إليه ، وارهفت الاسماع لحديثه . قال :

في يوم من الايام دخلت ـ أم المؤمنين ـ خديجة على محمد يتبعها غلام يافع ،فسائلها محمد عنه ، فردت : أن ابن أخيها حكيم بن حزام بن خويلد قد اشتراه من سوق عكاظ لها بأربعمائة درهم .

ولم يكن الفتى بالثقيل الظل ، فقد ألقت الوداعة عليه مسحة تقربه للقلب ، وله من الخلق ما حببه للناس . يختلف عن باقي الغلمان روحية ، فقد غفى على عينيه طيف شموخ أتعبته الايام ، وأفقدت روعته الحوادث . وتمردت على شفتيه ابتسامة تكاد تعتصر

الآلام ، وتفر منه آهات تنم عن حزن دفين .

وكلما ألح السائلون منه عن أهله ، وحيّه ، وقبيلته ، كان السكوت جوابهم ، والابتسامة البريئة رداً عليهم وينطوي السر ، ولعل الغلام هو نفسه لم يكن بالواقف عليه جلياً ، فقد كان عمره ثمان سنين واختطف من حيّه ، ولكن أنين الحنين كان يفضحه ، وقطرات من الدموع تنساب على خده الأسمر كلما تذكر ذلك اليوم القاسي . .

لم ينس الغلام ذلك اليوم الذي خرجت به أمه سعدى بنت ثعلبة من بني طي لتزور قومها ، فأغارت خيل لبني القين بن جسر ـ في الجاهلية ، فمروا على مضارب رهط أم زيد ، فاحتملوه ، وهو يومئذ غلام يافع ، وأتوّا به سوق عكاظ ، فعرضوه للبيع ، فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد بأربعمائة درهم ، ثم باعه لعمته خديجة بنت خويلد ـ ام المؤمنين ـ . وضاعت أخباره على أهله ، وعز ذلك عليهم ، فأبوه من سراة قبيلته يعرف بحارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزى ، وأمه من بني معن من طي . . فهو من أبوين كريمين ، وكان أبوه لا يهدأ يبحث عنه ، ويناغي ذكراه فيقول من قصيدة له :

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل
أحي يرجى ، أم أتى دونه الأجل

فوالله ما أدري وإن كنت سائلاً
أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل
فيا ليت شعري هل لك الدهر رجعة
فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجل
تذكرنيه الشمس عند طلوعها
وتعرض ذكراه اذا قارب الطفل
وان هبت الارواح هيجن ذكره
فيا طول ما حزني عليه ويا وجل
سأعمل نص العيش في الأرض جاهداً
ولا أسأم التطواف ، أو تسأم الإبل
حياتي أو تأتي عليّ منيّتي
وكل أمرىء فانٍ وإن غره الأجل
سأوصي به عمراً وقيساً كليهما
وأوصي يزيداً ثم من بعده جبل

بهذا الحنين الغارق بالهموم ، وبهذه اللوعة المتدفقة بالعاطفة كان حارثة يناغي ولده المفقود ، ورغم مرور الزمن ، فان حارثة لم يفقد الأمل من لقاء زيد ، وان غص به الصبر .

وكان زيد مع تعاقب الأيام في بيت خديجة يحظى بعناية من سيدته ويختلف عن بقية غلمانها ، ولعل دوافع هذه العناية من

السيدة الجليلة نابعة من اهتمام سيد بني هاشم له ، فمحمد كان يرعى الغلام باهتمام خاص ويتصدى لشؤونه ، وكانت خديجة تلحظ ذلك ، فيزداد عطفها على هذا الغلام . . وزيد لم تخف عليه هذه الرعاية نحوه من سيدته ؛ ومنشأها أنه ذلك الرجل الذي عرف بالصادق الأمين ، انه دوماً يحدب على الضعفاء ويحن على أمثاله من الناس الذي دفع بهم القدر أن يكونوا أرقاء عند ذوي اليسار .

إنه مثل الأخلاق العالية ، والصفات الرفيعة ، فريد في مزاياه ، رائع في مواقفه ، صديق للضعفاء ، حدب على المستعبدين ، يحسن مجالستهم ، ويتقصد رعايتهم ، ويهتم لمشاكلهم ، انه دائماً الى جانبهم لا يقدم عليهم أولاد الذوات .

وكان هذا الموقف من محمد سيد بني هاشم يثير الكثير من طواغيت قريش ، فيسخرون منه ، ويتغامزون فيما بينهم عليه . . إنه تواضع ـ كما يسميه البعض ـ ويختص به محمد دون سائر الناس . . ويتضاحكون . . ويتغامزون . . ويثور أبو جهل ، ويطفح الكيل عند أبي سفيان ، ويقول ثالثهم : إن يتيم عبد المطلب يريد أن يثير عبيدنا وخدمنا ، والاوباش من رعاعنا علينا ؟ !

كلا . . ان محمدا لم يقصد هذا ، ولم يرد ذاك . انها طبيعة

الانسان الشريف أن يحن على الضعفاء ، ويترحم على الارقاء ، ويعطف على المستعبدين .

هذا كله لم يخف على زيد بن حارثة ، ولعله هو العامل الوحيد الذي أبعد عنه الغربة ، ورفع عنه كابوس الاستعباد . . وصار يتتبع محمدا ، ويحرص كل الحرص على أن يكتسب من خلقه ما ينير له الطريق .

وكانت فرحته لا تحد ، عندما استوهبه محمد من سيدته خديجة ليختص به ، ولم تتوقف ام فاطمة في تلبية هذا الطلب . فزيد من اليوم أصبح غلام محمد . وان كان عليه أن يذكر الحق ، فخديجة ليست من أولئك النفر الذين يستعبدون ، انها تعاملهم معاملة إنسانية تختلف كل الاختلاف عن معاملة الأسياد الطغاة لارقائهم وعبيدهم . . بون شاسع ، كبعد السماء من الأرض بينها وبينهم .

ولدى محمد حساب آخر لهذه الطبقة إنه يملكهم ، ثم يعتقهم لوجه الله ، ما كان يريد أن يستعبد الناس ، وقد خلقهم الله أحراراً . .

ويستمر زيد في بيت محمد ينمو ، كما ينمو الغصن على الماء العذب ، حتى اذا أعلن النبي دعوته كان ثاني شخص أسلم بعد علي بن أبي طالب . وسار مع الدعوة صافياً كنبع المطر ، مؤمناً

كبهاء السحر ، متفانياً كعطاء الفجر .

وتشاء الصدف أن يحج اناس من كلـب ، فرأوا زيداً في مكة فعرفوه وعرفهم واستفسر عن أخبار أهله فأخبروه ، فطلب منهم أن يطمئنوا أبويه على سلامته وانه في خير مكان .

وجاء الخبر كلهفة الورد للربيع ، وعشق السنابل للشمس ، فهرع الأب مع بعض من أهل بيته الى مكة . ووصلا الى النبي (ص) وهو في المسجد يحف به أهـل بيتـه وصحابتـه . ووقف حارثة بين يديه مخاطباً :

يا بن عبد المطلب ، يا بن هاشم ، يا بن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله وجيرانه تفكون العاني ، وتطعمون الأسير ، جئنـاك في ابننا عندك ، فامنن علينا ، واحسن إلينا فدائـه .

فقال النبي : ومن هو ؟

ويرد الأب اللهفان : هو زيد .

فقال النبي : أدعوه فأخيره ، فان اختـاركم فهـو لكم ، وان اختارني فوالله ما أنا بالذي اختار على من اختارني أحداً .

فـرد الأب ـ وأيده من كان معـــه ـ قد زدتنـــا على النصف ، وأحسنت فدعاه النبي ، وأقبل زيد ، وقد كسته حيوية الشبـاب نضارة . فقال له النبي (ص) : أتعرف هؤلاء ؟

فقال زيد : نعم يا رسول الله هذا أبي ، وهذا عمي ، والبقية أهل بيتي .

قال رسول الله (ص) : يا زيد فأنا من قد علمت ورأيت صحبتي لك ، فاخترني أو أخترهما ؟

وغام في تفكير عميق ، ثم التفت وقال : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً أنت أبي وعمي .

فرد عليه عمه : ويحك يا زيد ، أتختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وأهل بيتك .

قال : نعم رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً .

وعندها قام رسول الله ، وأعلن في حشد من قريش بأن زيداً ابني . .

ومع أن فراق الولد ليس بالسهل اليسير إلا أن حارثة عندما سمع ذلك من محمد قرت عينه ، وهدأت نفسه ، فأي مكرمة أكبر من هذه المكرمة لولده زيد أن يتبناه فتى عبد المطلب ، وسيد بني هاشم .

كانت أبوة محمد لزيد حانية ، فقد ردت عليه غضارة الشباب ، وأذبت عنه غيوم الغربة . . فان زيداً لم يكن بعد اليوم

ذلك الرق المستضعف أنه ابن محمد زعيم قريش ، وسيد بني هاشم .

وتمر الأيام واذا بالاية الكريمة تنزل من السماء :

« . . . وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . .

أدعوهم لأبآئهم هو اقسط عند الله فإن لم تعلموا ابائهم فاخوانكم في الدين ومواليكم ، وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم ، وكان الله غفوراً رحيما »[1] .

فقال ريد : أيها المسلمون أنا زيد بن حارثة . .

وزيد مع الزمن يحظى من النبي بعطف خاص ، ومحبة يحسده عليها عدد من أصحابه ، فقد زوجه النبي (ص) بمولاته « أم أيمن » فولدت له أسامة بن زيد ، وبه كان يكنى . وآخا بينه وبين عمه حمزة ، وشهد معه بدراً وما بعدها ، حتى كانت غزوة مؤتة فأمره على جيش المسلمين ـ كما مر علينا ـ وقتل فيها ، فنعاه رسول الله بقلب ملؤه الحزن والأسى . .

ولم ينته ذكر زيد فقد كان لابنة أسامة حساب في تاريخ الدعوة واذا كانت السنة الثامنة من الهجرة قد انتهت حياة زيد بن -حارثة

---

(١) الأحزاب : آية ٤ ـ ٥ .

بمقتلـه في غزوة مؤتـة ، فبقيت ذكراه حية في قلـوب اخوانـه المسلمين ، فقد أعادت السنة العاشرة ذكراه من جديد مقرونة بما لمع لولده أسامة من أمر ، فقد نقلت الرواية :

ان رسول الله (ص) ، عندما قفل من حجة الوداع ، عائداً الى المدينة ، وبعد مرور فترة من الزمن حتى أعلن النبي (ص) بأنه يجهز جيشاً لغزو أرض الشام وأمر على الجيش أسامة بن زيد بن حارثـة ، وأمـره أن يُوطـي الخيل تخـوم البلقـاء من أرض فلسطـين ، والـزم المهاجـرين الأولـين ، ومـن شيوخ الصحابـة والأنصار بأن يخرجوا معه في سفرته هذه .

وسكت الشيخ أبو معاذ قليلاً من الوقت ، وكان يعتصر نفسه من الذكريات المؤلمة التي تزدحم في ذهنه ، وقد وصل به الحديث الى هذا الموضع الحساس .

أن النبـي (ص) في أخـريات أيامـه ، وهـو ينعـى نفسـه للمسلمين كلها واتته المناسبة ، فقد قالهـا في حجـة الـوداع أمـام حشود المسلمين ، وهو يخطب فيهم في « غدير خم» « إني أوشك أن أدعى فأجيب » .

وثانية يقول وهو يخطب في المسلمين أيضاً : « لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا » .

وثالثة يحدثنا عبد الله بن مسعود فيقول :

« نعى إلينا نبيّنا نفسه قبل موته بشهر ، وقد جمعنا في بيت أمنا عائشة فنظر إلينا ، ودمعت عيناه ، وقال : مرحبا بكم ، حياكم الله ، رحمكم ، آواكم الله ، وحفظكم ووفقكم ، ورزقكم ونصركم وهداكم .

ثم قال : أوصيكم بتقوى الله ، واستخلف الله عليكم ، اني لكم نذير وبشير لا تعلوا على الله في عباده وبلاده ، فانه قال لي ولكم : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ، ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » .

فقلنا : يا رسول الله متى أجلك ؟ .

فقال : « قد دنا الفراق والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى ، والرفيق الأعلى ، وجنة المأوى » . .

هذه صور من كثير من أمثالها كان رسول الله (ص) يخبر فيها أصحابه بأنه سيلقى ربه في عامه هذا ، وان الفتن ستقبل من بعده على المسلمين كقطع الليل البهيم ، يتبع آخرها أولها ، والآخرة شر من الأولى . .

وفي هذا الوقت بالذات يأمر رسول الله بتجهيز جيش لغزو الروم ويأمر عليه أسامة بن زيد ، ويعلن أكثر من مرة قائلاً : « لعن الله من تخلف عن جيش أسامة » . ويلزم علية القوم ، وكبار الصحابة بالمسير مع هذا الجيش عدى علي بن أبي طالب ،

فانه يأمره بأن يبقى معه . . وتفيد المصادر بأن من جملة الذين طلب منهم مصاحبة الجيش هو أبو بكر ، وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة الجراح ، وغيرهم من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار[1] ، ويقول لأسامة ، قائد الجيش :

« سر إلى موضع مقتل أبيك ، فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فأغر عليهم صباحاً ، وأسرع السير حتى لا تسبقك الأخبار إليهم فإن ظفرت بهم فأقل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء ، وقدم العيون والطلائع أمامك » .

وخرج أسامة بالجيش الى الجرف ـ موضع على مقربة من المدينة ـ وعسكر فيه ، حتى يتكامل تجمع الجيش ، وخلال ذلك مرض النبي وأخذ يشتد عليه ، فتباط القوم في الخروج ، بعد أن علموا بمرض النبي ، وبدأت المحاولات بعدم تحرك الجيش من مكانه .

وبلغ ذلك رسول الله (ص) فخرج عاصباً رأسه ، وقد غضب غضباً شديداً فصعد المنبر ، وخطب الناس ـ وقد بدى عليه التأثر ـ وقال :

« أما بعد أيها الناس ، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري

---

(١) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد : ٢/ ١٩٠

أسامة ولئن طعنتم في إمارتي أسامة ، فلقد طعنتم في امارتي أباه من قبله ! وأيم الله أنه كان للامارة لخليقاً ، وأن ابنه من بعده لخليق للامارة ، وانه كان لمن أحب الناس إليّ . . . واستوصوا به خيراً فانه من خياركم » .

وثقل المرض على رسول الله (ص) ، وكان يغشى عليه مرة بعد أخرى وفي مرة أفاق ، وتسائل عن جيش أسامة ، فأخبر بأنه لم يتحرك بالجرف لأن جل مشايخ الصحابة تقاعسوا عن الاستجابة ، وبقي أسامة معسكراً منتظراً عودة القوم .

وبان الغضب في وجه الرسول ، وراح يصارع الألم الذي يلح عليه من مرضه ، وتأثره من تخلف جيش أسامة ، ثم قال بملأ من أصحابه وهم عنده جلوس :

« نفذوا جيش أسامة ، لعن الله من تخلف عنه » .

شيء غريب أمر هؤلاء القوم ، وكأنهم تناسوا الآية الكريمة ، وهي تصرح :

« وما كان لمؤمن ، ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعصي الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا »[1] .

---

(١) ـالاحزاب اية ٣٦

ما هو عذر القوم عن عدم امتثالهم في الالتحاق بجيش أسامة . واعتذر بعضهم : أنهم لم يقدروا على مفارقة النبي وهو بهذا الحال . . عجيب كل العجب من هذه الأعذار . أن النبي أمر ، وأمره لازم التنفيذ ، واجب الطاعة . والفارق كبير بين الاستحباب في ملازمة النبي في أخريات أيامه ، ووجوب امتثال أوامره ، ومن رد عليه فقد رد على الله .

وليس لنا ترك هذا الأمر دون تمحيص ، فالموضوع خطير للغاية ، ويترتب عليه أمر الخلافة بعد النبي ، خاصة إذا ربطنا الحوادث بعضها ببعض .

شيء آخر له علاقة بالموصوع ، ذلك هو :

ان النبي وهو في لوعة المرض ، ومعاناة ما أصابه من تأثر بالغ من اجراء عدم استجابة شيوخ المهاجرين والأنصار لتنفيذ جيش أسامة ، ولم يقنع بأجوبة المشايخ ، وفي مقدمتهم أبي بكر الذي قال : اني خرجت ثم رجعت لأجدد بك عهداً . وعذر عمر في قوله : اني لم أخرج لأني لا أحب أن أسأل عنك الركب . انما أكد عليهم : نفذوا جيش أسامة . . وكرر ذلك ثلاثاً ـ كما يقول الرواة ـ وأغمي عليه من التعب . ثم أفاق ، ونظر الى من حوله ، وقال :

« آئتوني بدواة وكتف لأكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً » .

وبادر بعض من الجالسين لاحضار دواة وكتف ، ليكتب لهم نبيهم ما يريد فهو « لا ينطق عن الهوى ، ان هو إلا وحي يوحى »

ولكن عمر بن الخطاب صاح به : أرجع ، فانه يهجر . . وروى آخرون أن أبا حفص قال : ان النبي قد غلبه الوجع فاتركوه .

وسواء كانت كلمة « الهجر » أم « الوجع » فليس من الانصاف أن ينعت بهما رسول الله ، وبهذه القساوة . . إنه اجتراء لا يغتفر أي كان قائلهما . وأين حرمة النبوة ، والعصمة من هذه الفلتات الجاهلية ، واللامبالات الأخلاقية .

واختلف الجالسون عند النبي فمنهم من يصر على احضار الدواة والكتف ليكتب النبي ما يريد ، وقسم آخر أصر على السلبية ، ويفتح النبي عينيه بعد جهد ، ويلتفت إليه بعض أصحابه ويقول له : ألا نأتيك بدواة وكتف يا رسول الله تكتب فيه ما تريد ؟ .

ويرد النبي عليهم بغضب : « كلا ، أبعد الذي قلتم . . ولكن أوصيكم بأهل بيتي خيراً » .

ثم التفت إليهم وقال لهم : « قوموا عني يرحكم الله » . . .
كان يقول عبد الله بن عباس : الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب . .

ويقول القائلون : أن أبا بكر لم يحضر هذا المجلس ، ولو كان حاضراً لأنكر على قائلها جسارته وجرأته على رسول الله . .

ولكن هذا العذر لم يخلص أبا بكر من الإشكال ، فهو عندما سمعه لمذا لم ينكر على قائلها قولته الفظيعة ؟ ثم لماذا لم يذهب الى رسول الله (ص) مبادراً وهو مسجى في غرفة أبنته فيسائله عما كان يريد أن يقوله ؟ ولعله ذهب ، ووقف على حاله ، لكنه لم يتطرق الى ذلك خشية أن يقول النبي ما لا يرغبه .

والأغرب أن هذين الموقفين : عدم الاستجابة لتنفيذ جيش أسامة . ومنع النبي من كتابة كتاب لأمته لن يضلوا بعده أبداً قد تمّا في وقت متقارب جداً !! ، فهل هو من باب الصدفة ، أم هناك تخطيط يراد من ورائه أمراً ؟ .

مجرى الأمور في تلك الأيام تشير الى أن هناك تخطيط لصد النبي عن كل ما يمكن اظهاره عن صورة من سيخلفه من بعده في أمر الدعوة ؟ . وهذا ادعاء قد لا يقبل به القارىء اذا ما دعم بالإثبات ، وعلى هذا فلا بد من عودة للأمرين لنتلمس من خلالهما ما يثبت القول .

سكت الشيخ أبو معاذ برهة ، وتباطأ في الحديث ، وكأنه يستجمع شوارد فكره ، وانتزع الكلمات انتزاعاً ، إنه لا يرغب في

نبش الماضي ، وقد تزاحمت عليه هموم السنين ، وصعاب الأحداث ، بيد أن أمانة الحديث وصدق المؤرخ يحتمان عليه الاستمرار ، ومع الآهات المحزنة قال :

موضوع جيش أسامة ، لا يمكن المرور به عاجلاً ، وعرضه على السامع من غير تحليل وتدقيق .

فقد أمر النبي بتجهيز جيش أسامة لغزو الشام ـ وبالصورة التي تقدمت ـ وقد أمر الرعيل الأول من الصحابة مهاجرين وأنصار بمصاحبة هذا الجيش في مسيرته باستثناء علي بن أبي طالب فقد تركه إلى جانبه وقد عرفنا من قبل أن توقيت تسيير هذا الجيش هو في أخريات أيام النبي (ص) ، ولا سبيل الى الشك في أن النبي أصر على أن لا يتخلف جيش أسامة عن السير ، ولم يرض لأي شخص ممن أمره بالشخوص مع الجيش أن يتخلف أيضاً ، ولم يقبل منهم أي عذر ، وقالها بكل صراحة ، على ملأ من الناس « لعن الله من تخلف عن جيش أسامة » وهذه الفقرة تدل دلالة واضحة على مدى تأثر النبي من تقاعس الذين سببوا تخلف المسيرة . ولعلنا نستطيع أن نتصيد من خلال ما ورد عن جيش أسامة « الحاح النبي على ضرورة مسير الجيش الى الوجهة التي وجهها إياه على الرغم من مرضه وأعجب من ذلك هو تلكؤ القوم وتملصهم عن تنفيذ أمر النبي ، فكأن هناك أمر خفي يتنازع عليه الطرفان .

ترى لماذا ألحّ الرسول على إنفاذ الجيش في تلك اللحظة الحاسمة من حياته ؟ .

لماذا وضع في الجيش كبار الصحابة ، وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر ، واستثنى علي بن أبي طالب ؟ .

ولماذا جعل أسامة قائداً للجيش رغم احتجاج كبار الصحابة ؟ .

لماذا أحجم القوم عن تنفيذ أوامره ؟

هل رغب الرسول في إخلاء الجو لعلي ؟ وشعر القوم بذلك فأحجموا ؟

تلك أسئلة محيرة دون شك » . .

ويجدر بنا أن نرد ـ ولو بإيجاز ـ على هذه الأسئلة التي طرحها المؤرخون من قبل ، وعسى أن نتوفق لإزاحة الحيرة عنها .

النبي عليه الصلاة والسلام قد عرف حق المعرفة أنه راحل عن هذه الدنيا في أيامه المقبلة ، وأن عليه وهو صاحب رسالة ـ ومن أهم الرسالات ـ أن يحدد الشخصية التي تتحمل مسؤولية استمرارية الدعوة من بعده ، فليس من المعقول أن يترك الأمة في جهل مطبق عن هذا الأمر . وهو الذي كان يحرص كل الحرص أن لا يترك المدينة خالية ممن يمثله ، لو تركها في غزوة أو سفر ؟ .

فكيف به وهو عارف أنه سيترك المدينة في الرحلة الطويلة

المفروضة على كل البشر ، وهو الموت ، واذا ترك الأمة من غير مسؤول عنها ، فقد عمد ـ وحاشا لله ـ إلى أن تقع في عماية وجهل ، وما يترتب على هذا الأمر من مخاطر يصعب تصوره ، ولا يمكن قبوله ـ على فرض صدق تصوره . من نبي جاء لانقاذ الناس ، والزامهم بأحكام الله ، وتترتب المسؤولية الجزائية على مخالفة تلك الأحكام . . وعلى هذا فلا بد من التصور والقول بلزوم التعيين . .

وقد يطول بنا المجال لو استعرضنا الفترة الزمنية من حين البعثة الى قبيل الوفاة والتقطنا ما صدر عنه (ص) قولاً وفعلاً في حق الشخصيات التي لازمته وكانت مقربة إليه ،فمن سيفوز بالترشيح يا ترى ؟ .

والذي لا شك فيه أننا لا يمكن أن نعدوا طريقين ، لا ثالث لهما في ترشيح الشخصية التي تليق بتحمل المسؤولية من بعده ، فأما التصريح والتعيين المباشر على تلك الشخصية ، وهذا لم يحصل لو جارينا القائلين بالعدم ، ولسنا من المتشددين في معارضتهم ومخالفتهم في أن النص الصريح الواضح الذي ينص بما نريد غير موجود . إذاً فلا بد أن نلجأ إلى الثاني وهو التأكيد على الشخصية المثلى لهذه المسؤولية ، وهو من طريق ابرازها بمظهر الانفراد في كل الجوانب المحددة للمسؤولية القيادية ، ويمكننا على سبيل المثال لا

الحصر أن نطرح أهم تلك الجوانب ، وهي :

١ ـ الناحية العلمية : وهي جانب مهم لا بد أن يتوفر في هذه الشخصية وليس هناك من أحد من الصحابة قاطبة قال فيه الرسول الأعظم : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » وهو حديث صحيح لا يطعن فيه أي إنسان في كونه صدر عن النبي (ص) ويدل على مدى غزارة علم علي ، وأن علمه من علم النبي .

٢ ـ الناحية الخلقية : وقد لا يوجد أحد من الصحابة يضاهي علياً بهذا الجانب ، لأنه استمد أخلاقيته من ابن عمه رسول الله (ص) ، والذي عاش في كنفه وعمره لم يتجاوز السادسة ، ورعاه حتى اكتملت بناء شخصيته وقد قال الله تعالى في نبيه « وانك لعلى خلق عظيم » .

٣ ـ الجانب الإيماني : وان توفر الإيمان الحق في علي لما هو معروف لدى كافة الصحابة ، وقد روى عمر بن الخطاب قال : « أشهد على رسول الله (ص) لسمعته يقول : لو أن السموات السبع وضعت في كفة ووضع إيمان علي في كفة لرجح إيمان علي » .

٤ ـ الجانب البطولي : ولا أحسب أن هناك من يشك في بطولة علي ، وشجاعته ، ويكفي مواقفه في حروب النبي ، وغيرها وهي تدل على شجاعة فائقة ، وبطولة لا تضاهى ، بالاضافة الى كونه

فارساً شريفاً لم يسلب خصمه عند مقارعته له ، ولا يخاتله في الحرب ، وقد ذكر أنس بن مالك أنه قال : صعد رسول الله (ص) المنبر فذكر قولاً كثيراً ، ثم قال : أين علي بن أبي طالب ؟ فوثب إليه ، فضمه إلى صدره ، وقبل بين عينيه ، وقال : بأعلى صوته : معاشر المسلملين : هذا أخي ، وابن عميّ وختنى . هذا لحميّ ودميّ وشعري . هذا أبو السبطين الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة ، هذا مفرج الكروب عني ، هذا أسد الله ، وسيفه في أرضه على أعدائه . . . » .

لست الآن في صدد تعداد الصفات والمزايا التي تحلى بها الإمام علي بن أبي طالب (ع) دون غيره ، لأنها معروفة ولا يمكن نكرانها . إنما الشيء الذي حاولت أن أركز عليه أن هذه الشخصية أنفردت دون سائر الصحابة بصفات أساسية للشخصية التي يجدر بها أن تتحمل المسؤولية بعد النبي مضافاً إلى ذلك كثير من الإشارات النبوية ضمن مجاري الأحداث بأن هذا ـ ويشير إلى علي ـ « وصّي » و « خليفتي فيكم » أو « خليفتي من بعدي » ـ على اختلاف الروايات ـ ، ولعل آخرها موقفه في غدير خم .

وهذه كلها لم تنبع من النبي (ص) بدافع العاطفة والقربى ، فهو بمقام المسؤولية ومركز القيادة أرفع من أن نصفه بهذه الصفات العاطفية ، إنما هي تقرر « قاعدة الكفاءة » مع غض النظر عن

صلة الشخص ومدى قرباه وإن كنت أنظر لها ـ الصلة الشخصية ومدى القربى ـ بمنظار التقدير والاهتمام شريطة أن تكون مقترنة بالمقومات الأساسية الأخرى ، أما هي بمفردها فلا قيمة ولا أهمية لها ـ كما هو شأن أبي لهب ـ وهو عم النبي .

وإذا كانت هذه المقومات الأساسية متوفرة في هذه الشخصية دون غيرها ، وأن الرسول (ص) أكد على التعريف بها أكثر من مرة على ملأ من القوم فلماذا لا نعتبرها مؤشرات واضحة على ترشيح هذه الشخصية لمركز القيادة المستقبلي للأمة . وهي مبادىء قويمة لتقدير « الكفاءة الشخصية » لهذا المركز الخطير .

وإلى هنا فنحن لا يمكن أن نضلع في ركاب القائلين بأن النبي ترك الأمة دون أن يرشح لها الشخصية المناسبة لتحمل المسؤولية من بعده .

ولنعد بعد هذا إلى حديثنا عن جيش أسامة . .

وإذا كنا قد ذكرنا فيما سبق أن الرسول (ص) في علاقاته العامة مع أصحابه قائمة على مبدأ الكفاءة الشخصية ، فليكن تأثير أسامة بن زيد على جيش لجب يضم الرعيل الأول من الصحابة ـ وهو فتى لا يتجاوز العشرين من عمره ، أو تجاوزها بقليل ـ من هذا القبيل « فليست الشهرة ، ولا تقدم العمر هما الأساس لاستحقاق الإمارة والولاية ، فلذا قال عن أسامة مؤكداً جدارته بالقسم ولام

التأكيد « وأيم الله أن كان لخليقاً للامارة ـ يعني زيداً ـ وأن ابنه لخليق للامارة » .

واذا علمنا أن عليّ بن أبي طالب هو المهيأ لولاية أمور المسلمين بعد النبي ـ على الأقل ـ أن فرض أنه لم يكن هو المنصوص عليه ، أفلا يثبت لنا أن قضية أسامة كانت لقبول الناس امارة علي على صغر سنه يومئذ بالقياس إلى وجوه المسلمين وكان إذ ذاك لا يتجاوز الثلاثين ؟ »[1] .

وهذا تقرير واضح من النبي لمبدأ « الكفاءة » وان أسامة جدير بالامارة لأنه كفوء لها ، وصاحب مقدرة فيها . مع غض النظر عن السن ، فهو أمر ثانوي بنظر « الكفاءة » .

ثم أن النبي (ص) على علم جيد بنفسيات بعض أصحابه ، واطلاع كاف على ما يدور في أذهانهم ، وما تجيش به خواطرهم نحو ابن عمه علي ، وعلى هذا الضوء قرر إبعاد كل إنسان عن المدينة يحتمل فيه أن يقف من خلافة علي موقف المعارض ، ولهذا نراه عمد الى أمر كل من يلمس فيه تلك الناحية للانضمام لجيش أسامة ، في حين ترك علياً ومن يؤيده في المدينة .

وحينما لاحظ النبي (ص) وضعه الصحي ، وعرف أنه راحل

(١) المرحوم المظفر ـ السقيفة : ٧٧

إلى ربه في أيامه هذه ألح على تسيير الجيش لمحاربة الروم لتخلو المدينة من الوجوه المزاحمة للأمر المرتقب .

وقد لا يخلو من وجاهة رأي من ذهب إلى أن الغرض من تأمير أسامة على هذا الجيش « أن يقلل من نزوع المتوثبين للخلافة ، ليقيم الحجة لهم ، وللناس بأن من يكون مأموراً طائعاً لشاب يافع ، ولا يصلح لامارة غزوة موقتة كيف يصلح لذلك الأمر العظيم ، وهو ولاية أمور جميع المسلمين العامة ! وهي في مقام النبوة وصاحبها أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

وأحسب أننا نتمكن الآن أن نربط بين جيش أسامة ، وبين الأمر الثاني الذي لا يقل عن الأول أهمية ، وهو موضوع الكتاب الذي كان النبي يروم كتابته فمنعه بعض الصحابة ، وتطاول عليه .

فقد تقدم كيف أن النبي ، وكان في حالة مرهقة من المرض طلب من الجالسين عنده وكلهم من الرعيل الأول من الصحابة أن يأتوه بدواة وكتف ليكتب لأمته كتاباً لن يضلوا بعده أبداً . .

والنبي وهو بذلك الوضع الصحي الخطير اقتنع أن جيش أسامة لن ينفذ ، ولم ينفع مع المتخلفين عن السير لعنه لهم ، أو غضبه عليهم ، أو عدم رضاه منهم على الأقل ـ إذا شككنا في رواية اللعن ـ ورغم هذا فهو مصمم على بذل كل ما في إمكانه على

إظهار الحقيقة بالشكل الذي يريده . ولما كان الكلام وحده غير كاف لتسجيل الموقف لتأزم الجو المحيط به ، وتوتر أعصاب أغلب الجالسين عنده ، طلب منهم دواة وكتفاً ليكتب ما يريد أن يقوله في تلك الساعة الحاسمة .

ولعل بعض الجالسين من مبرزي الصحابة قد التفت إلى هذا الأمر فبادر الى منع من حاول أن يقوم بتنفيذ الأمر ، وصاح به : أجلس « إن رسول الله قد غلبه الوجع ـ أو ليهجر ـ وعندكم القرآن ، وحسبنا كتاب الله » . وسيطر وجوم عنيف على الحاضرين ، فليس بالهينّ أن يتطاول أحد على النبي بهذا القول الجارح .

ومهما أمتد اللغط والهمس بين الجالسين بين ناقد لهذا القول ، ومؤيد له فقد أثرت بالنبي الذي طرقت مسامعه ، وهو يعالج نفسه فازداد حزناً على حزن ، وألماً على الألم ، وأشار إليهم ـ وهو يجر الكلمات إلى شفتيه جراً ـ وهو يسمع أحدهم يقول له : نأتيك بكتاب تكتب فيه ما تريد ، فيقول :

« أو بعد الذي قلتم ؟ . قوموا عني . ولا ينبغي عند نبي نزاع » .

إن القائل والمتطاول على النبي بهذه القولة الجارحة القاسية ليس بالغبي « فقد فهم من قوله (ص) « لن تضلوا بعده أبداً » ماذا

سيريد أن يكتب الرسول . ويشهد لتنبه قوله بعد تطاوله الفظيع « حسبنا كتاب الله » إذ فهم أن غرض النبي أن يقرن الثقلين أحدهما بالآخر ، فكأنه قال : يكفينا واحدا منهما ، وهو الكتاب ، ولا حاجة لنا بالأخر ، وإلا فما كان معنى لقوله حسبنا . . . وهو يدعي هجر النبي (ص) » . .

لقد انتهى الشوط الذي أندفع إليه واضعوا المخطط لإبعاد عليّ عن مركز قيادة الأمة من بعد نبيّها .

فهذه اللحظات السوداء تمر على البقية من الجالسين ، وقد انشدّت عيونهم إلى ذلك المسجى ، ورأسه في حجر ابن عمه علي ، وهو يعاني سكرات الموت ، وفي قلبه حزن وأسف . .

حزن على المستقبل المظلم لهذه الأمة ، وأن الفتن سوف تداهمها كقطع الليل البهيم .

وأسف لأنه حاول أن يجنبها كوارث هذه الفتن بوضع الأمور في نصابها ، فمنع من تحقيق ذلك . .

ثم انسابت الكلمات هادئة من فمه الطاهر تودع الدنيا ، وتحمل في ثناياها أكثر من معنى :

« أوصيكم بأهل بيتي خيراً » :

وينطفىء المصباح . ويغرق البيت بالظلام . .

كان ذلك في داره بالمدينة عام ١١ للهجرة لليلتين بقيتا من صفر ـ وعلى رواية لأثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول .

وعاد أسامة إلى المدينة ، ولم يسر بالجيش ، فقد انشغل الرعيل الأول في أمر السقيفة تمهيداً للخلافة . .

وكان ما كان . . .

« كان كل شيء يرشح علياً للخلافة . . . قرابته من النبي ، وسابقته في الإسلام ، ومكانته بين المسلمين ، وحسن بلائه في سبيل الله ، وسيرته التي لم تعرف العوج قط ، وشدته في الدين ، وفقهه بالكتاب والسنّة ، واستقامة رأيه » .

ولكن أرادوا أمراً غير ما أراده الرسول (ص) وخططوا له منذ عهد بعيد . ويكشفها بصراحة الخليفة الثاني وهو يحاور ابن عباس فيقول له :

أتدري ما منع قومكم منكم بعد محمد ؟ . كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة ، فتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً ، فاختارت قريش ما أختارت .

ولا أخال أن الموقف لا زال غامضاً بخصوص عدم تنفيذ جيش أسامة وعدم الاستجابة للنبي ليكتب ما كان يريد أن يكتبه لأمته . .

وهكذا أنتهى الأمر !! . .

أما أسامة بن زيد فتقول الرواية : أنه عزل نفسه عن الأحداث وتجنب الفتن ، حتى ذكر أنه لما بايع المسلمون الإمام علي بالخلافة طائعين غير مكرهين ، عدى ثلاثة بايعوه ، ثم شكوا في القتال معه ، ولزموا بيوتهم منهم أسامة بن زيد .

ولكن بعض الروايات تقول : أن أسامة ما مات حتى تاب إلى الله تعالى من تخلفه عن علي عليه السلام[1] .

يقول الراوي : لما فرض عمر بن الخطاب للناس ، فرض لاسامة بن زيد خمسة الآف ، ولابن عمر ألفين . فقال ابن عمر : فضلت عليّ أسامة ، وقد شهدت ما لم يشهد ؟ فقال ابن الخطاب : إن أسامة كان أحب إلى رسول الله (ص) منك ، وأبوه أحب إلى رسول الله (ص) من أبيك »[2] !! .

وسواء تخلف أسامة عن الإمام علي ، أو لم يتخلف ، وسواء نصر علياً أو تقاعس . فعليّ كما قال عنه رسول الله :

---

١ ـ ٢ ابن عبد البر ـ الاستيعاب : ١/ ٧٦ ـ ٧٧ .

« علي مع الحق ، والحق مع علي ، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة » .

وقال (ص) :

« ومن اتخذ علياً إماماً لدينه فقد استمسك بالعروة الوثقى في دينه ونفسه »[1] .

---

(١) الحديثان ذكرهما الفيروز أبادي في فضائل الخمسة من الصحاح الستة : ٢/ ١٠٩ عن الحاكم في مستدركه ، والفخر الرازي في تفسيره الكبير والخطيب البغدادي في تاريخه .

مصادر الكتاب

١ ـ الارشاد .... للشيخ المفيد

٢ ـ الاصابة .... لابن حجر

٣ ـ أسد الغابة .... لابن الأثير الجزري

٤ ـ تاريخ الأمم والملوك .... لابن جرير الطبري

٥ ـ تاريخ اليعقوبي .... لأحمد بن أبي يعقوب

٦ ـ مروج الذهب .... للمسعودي

٧ ـ المستدرك .... للحاكم النيسابوري

٨ ـ المناقب .... لأبن شهراشوب

٩ ـ شرح نهج البلاغة .... لابن أبي الحديد

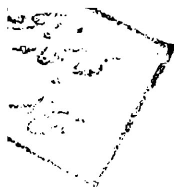
١٠ ـ كشف الغمة .... للاربلي

١١ ـ السيرة النبوية .... لابن هشام

١٢ ـ الغدير .... للشيخ عبد الحسين الأميني

١٣ ـ بحار الأنوار .... للمجلسي

١٤ ـ فضائل الخمسة من الصحاح الستة للفيروز أبادي



الفهرست

المنشورات الجديدة

لـــدار الزهـــراء

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت لبنان

تلفون : ٢٩٥١٥٩ ص.ب ٩٣٧٠

اسم الكتاب	المؤلف
١ ـ التقليد في الشريعة الاسلامية	السيد عز الدين بحر العلوم
٢ ـ النظرة الرشيدة في المباهلة السعيدة	الشيخ منصور عبدالله البيات
٣ ـ المرأة في ظل الاسلام	السيدة مريم نور الدين فضل الله
٤ ـ الحسن والحسين امامان ان قاما وان قعدا	السيد محمد بحر العلوم
٥ ـ القرآن وفضائله في النشأتين	الشيخ فخري الظالمي
٦ ـ الزواج في القرآن والسنه	السيد عز الدين بحر العلوم
٧ ـ ادوار علم الفقه واطواره	الشيخ علي كاشف الغطاء
٨ ـ النصائح الكافية لمن يتولى معاوية	السيد محمد بن عقيل
٩ ـ بين يدي الرسول الاعظم القسم الثالث	السيد محمد بحر العلوم
١٠ ـ الخمس في الشريعة الاسلامية	السيد حسن الحسيني القزويني
١١ ـ تاريخ الشيعة	الشيخ محمد حسين المظفر
١٢ ـ عمار بن ياسر	الشيخ محمد سعيد شمس الدين
١٣ ـ قال الاسلام قبل ذلك	السيد هادي المدرسي
١٤ ـ المهدي	السيد صدر الدين الصدر